الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى –جيجل–

كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:...

مذكرة بعنوان:

قضايا اللسانيات التداولية في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة و الأدب العربي

تخصص: اللسانيات العربية

من إعداد الطالبتين:

- خديجة شكـراوي
- روميسـة حيـول

تحت إشراف:

د. عبد الفتاح جحيـش

أعضاء لجنة المناقشة:

1. د/ حبيبـة مسـعودي... أستـاذة محاضـرة "أ"... رئيسـا
2. د/ عبد الفتـاح جحيـش... أستاذ محاضر "ب"... مشرفا ومقررا
3. أ/ نسيمـة حـارش... أستاذة مساعـدة "أ"... ممتحنـا

السنة الجامعية: 2021–2022م

1442–1443هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

دعـــاء

« رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ »

سورة النمل: الآية 19

اللّهم علِّمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علّمتنا وزدنا علما

اللّهم لا تجعلنا نصاب بالغرور إذا نجحنا ولا باليأس إذا أخفقنا وذكّرنا أنّ الإخفاق هو التجربة التي تسبق النجاح

اللّهم إذا أعطيتنا نجاحا فلا تأخذ تواضعنا وإذا أعطيتنا تواضعا فلا تأخذ اعتزازنا بكرامتنا

ربنا تقبل دعـاءنـا

شكر و عرفـــــان

قال الله تعالى:

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»

وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه و سلم: "من لم يشكر النّاس لم يشكر الله".

نتقدم بالشكر الجزيل إلى من قدم لنا يد العون والمساعدة،

قليلا أو كثيرا من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث وأولهم بعد المولى عز وجل والدينا الكريمين أطال الله في أعمارهم إذ لم يفتروا علينا بالدعاء.

إلى جميع أساتذتنا الأفاضل بجامعة جيجل وعلى رأسهم

الأستاذ المشرف **الدكتـــور عبد الفتـــاح جحيـش**

الذي حظينا بكرم إشرافه على رسالتنا وتنوير دربنا بنصائحه الصائبة، وتوجيهاته السديدة فكان له الفضل الكبير في متابعة مراحل هذا البحث والحرص على إخراجه إلى الوجود في أجمل حلة، فله منا بالغ الشكر والعرفان وخالص الامتنان.

إلى جميع الأساتذة الذين سيشرفون على مناقشة هذا البحث، فلهم منا تحية تقدير وتمام الإحترام.

خديجـــة/ روميســـــة

إهـــداء

بسم من خلق الإنسان وعلمه البيان ومن

وفق العباد، أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع إلى:

من كان سببا في خروجي للدنيا، إلى الذي أحسن تربيتي وعلمني الصبر والمثابرة، إلى الذي ساهم من أجل أن أتعلم... إلى ***أبـــي الغالي*** حفظه الله.

إلى من تكبدت جهدا في تربيتي، إلى من دعواتها تنير دربي، إلى من غرست في نفسي مكارم الأخلاق... إلى ***أمـــي الحبيبة والغالية*** حفظها الله.

إلى من تربيت وعشت معهم، إلى من تقاسمت وإياهم الحلو والمر... إلى إخوتي وأخواتي ***سفيان ورفيق وحنان ولمياء وســـارة***... وإلى زوجة أخي ***سمية***.

إلى القلوب الطاهرة والنفوس البريئة... إلى الكتاكيت ***سامي وأيمن وجود***.

إلى رفيق الدرب وصديق الأيام جميعها بحلوها ومرها، إلى من كان دائما بجانبي من أجل مساعدتي بكل ما يملك من جهد ووقت... ***خطيبي عمـر***.

إلى مثال الصداقة ونبل الأخلاق صديقاتي ***عايدة ولمياء***، وإلى من تقاسمت معها حلاوة هذا البحث ومرارته، وتشرفت بالعمل معها زميلتي وصديقتي ***خديجة***.

إلى رفقائي وزملائي بجامعة **محمد الصديق بن يحي** التي كانت محطة كبيرة غيرت من حياتي للأحسن وأضافت الكثير إلى وعيي وفكري وثقافتي.

إلى أساتذتي الأفاضل بقسم اللغة والأدب العربي، خصوصا الأستاذ المشرف ***عبد الفتاح جحيش***.

روميســـــــــــة

إهـــداء

إلى شهداء ***فلسطين*** الأبرار

إلى بلد المليون ونصف المليون شهيد وطني ***الجزائر***

إلى من تتسابق إليها الكلمات لتخرج معبرة عن مكنون ذاتها، تلك التي لطالما كانت دعواتها عنوان دربي، ويدها دوما في يدي وصنارة جهدها وسهرها تصطاد لي الراحة وتخطف التعب والألم من قلبي، وعندما تعتريني الهموم أسبح في بحر حبها وحنانها...لكِ يا ***والـدتي الحبيبة***

أهديك رسالتي لتهدينا الرضا والدعاء.

إلى بؤرة النور التي عبرت بي نحو الأمل والأماني الجميلة واتسع قلبه ليحتوي حلمي، حين ضاقت الدنيا روّض الصعاب من أجلي وسار في حلكة الدرب ليغرس معاني النور والصفاء في قلبي وعلمني معنى أن نعيش من أجل الحق والعلم لنظل أحياء حتى لو فارقت أرواحنا أجسادنا والذي لطالما تعطر قلبه شوقا وحنت عيناه الوضائتان إلى رؤيتي أحمل شهادة الماستر، التي هي الآن بين يديك... ***والـدي الحبيب***.

إلى الذي صبر علي شهورا طوالا، كم كنت فيها عاكفة على البحث والدراسة... ***زوجي الغالي*** الذي كلما تأملت فيه استحضرت عظمة نعمة ربي علي حينما أكرمني به، ولا أدري كيف أخطو سبيل الشاكرين أمام نعمة ربي، فنعم الزوج الصالح هو.

إلى من يذكرهم القلب قبل أن يكتب القلم، إلى من قاسموني حلو الحياة ومرها تحت سقف واحد... ***إخوتي وأخواتي***.

إلى فلذات كبدي أبناء أختي... ***رهف وفراس***.

إلى رفيقات المشوار اللاتي قاسمنني لحظاته حماهنّ الله ووفقهنّ ... ***روميسة ولمياء***.

إلى الذين حملوا أقدس رسالة في الحياة ومهدوا لنا طريق العلم والمعرفة ***أساتذتنا الأفاضل***، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف ***عبد الفتاح جحيش*** لما كان له من نصح وتوجيه.

إلى كل قسم اللغة والأدب العربي وجميع دفعة 2022 جامعة محمد الصديق بن يحي –تاسوست-

خديجـــــة

مقدمـــــة

بسم الله الرحمان الرحيم وبه نستعين، وبعد:

أصبحت الدراسات في مجال التداولية محل اهتمام العديد من النقاد والدارسين في شتى التخصصات المعرفية، خاصة التواصلية منها؛ باعتبار أن التداولية نحتاجها تقريبا في معظم المعارف الإنسانية، بدءً من علم الاجتماع إلى علم النفس، وعلم الإتصال، والنقد الأدبي، والبلاغة، والسيميائيات، وتحليل الخطاب واللسانيات وغيرها. ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا العلم قد طغى مؤخرا على ميدان الأبحاث اللسانية، خصوصا في مجال التواصل اللساني.

وكما هو معروف فإن التداولية علم جديد للتواصل الإنساني يدرس الظواهر اللغوية في الاستعمال، ومن هنا جاءت تسميتها بعلم الاستعمال اللغوي، الذي يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه وطرائق وكيفية استخدام العلاقات اللغوية ضمن السياقات والمقامات المختلفة، وكما تبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب دراسة واضحة وناجحة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على النظرية التداولية وإثبات أصولها في البلاغة العربية القديمة، ومحاولة لتقريب هذه النظرية الغربية مع ما أنتجه العلامة عبد القاهر الجرجاني.

لذلك جاء بحثنا موسوما بـ: **قضايا اللسانيات التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.**

سننطلق في دراسة موضوعنا من إشكالية عامة هي:

كيف تجلت معالم اللسانيات التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني؟

لدراسة الموضوع قسم البحث إلى: فصلين مسبوقين بمقدمة ومذيلان بخاتمة و ملحق:

- مقدمة تمهد للموضوع.
- مدخل يتحدث عن حياة الإمام عبد القاهر الجرجاني، وقدّم فيه تعريفا مبسطا لكتابه "دلائل الإعجاز.
- الفصل الأول بعنوان: اللسانيات والتداولية (النشأة والأسس)، احتوى على أربعة مباحث، حاولنا من خلالها إبراز مفهوم كل من اللسانيات والتداولية والإرهاصات الأولى لنشأتهما، والعلاقة بينهما، بالإضافة إلى أهم قضايا التداولية.
- الفصل الثاني بعنوان: قضايا اللسانيات التداولية في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، احتوى على ثلاثة مباحث جعلنا مدار الحديث فيها عن عناصر الدائرة التخاطبية عند الجرجاني، والقول

المجازي في الاستعارة والكناية، بالإضافة إلى ربط المقولات البلاغية التي تناولها في الكتاب بالقضايا التداولية المعاصرة، لإبراز إسهامات العرب في الدرس التداولي ومن تلك القضايا التقديم والتأخير، الفصل والوصل، والحذف ومضمرات القول.

- خاتمة تلخص أهم النتائج المستقاة من البحث.

اقتضت منا طبيعة الموضوع توظيف بعض عناصر المنهج الإبستمولوجي (علم المعرفة) في درس المتن الجرجاني وبلورة مفاهيم التداولية باعتبارها ظاهرة خطابية تواصلية تحوي قوة إنجازية، وهو ما يصلح للتطبيق على المتن الجرجاني؛ إذ تتألف من عدة صيغ وأساليب وأدوات يستعملها المتكلم للدلالة على القوة الإنجازية التي يقصد تضمينها في خطابه (الخبر والاستفهام والأمر والنهي والإنكار)، لاسيما عند البلاغيين ونحن نعلم أن الجرجاني حصر البلاغة في علمي المعاني والبيان مع إضافة ما يلزم كلا منهما من علوم وآليات موضحة ومساعدة، ولعل هذا ما يجعل المتن الجرجاني نبعا صافيا للبحث عن مظاهر اللسانيات التداولية، وبيان مدى استيعاب فكر الجرجاني للتقريب التداولي وتطبيقه في مباحث "دلائل الإعجاز". أما سبب اختيارنا لكتاب "دلائل الإعجاز" هو اهتمامنا بتقصي التراث العربي، وانبهارنا بنظرية الجرجاني، ومحاولة الكشف عن أسسها المعرفية.

كما اضطررنا إلى توظيف الوصف الذي من خلاله تناولنا تعريفات لأهم المفاهيم والمصطلحات، والمنهج التاريخي الذي من خلاله تتبعنا الإرهاصات الأولى لنشأة حقل اللسانيات والتداولية.

بما أن كل بحث لا يخلو من متاعب وصعوبات تواجه الباحث أثناء عملية البحث، فقد واجهتنا جملة من الصعوبات منها:

- طبيعة الموضوع، فهو موضوع واسع عميق ذو محاور ومجالات متعددة، يتطلب جهدا كبيرا، لذلك اضطررنا تحديد البحث واقتصاره على محاور معينة.
- صعوبة حصر المدونة نظرا لتشعب القضايا الواردة فيها، إضافة إلى صعوبة منهج عبد القاهر في الكتابة، والتعبير، ودقة العبارة.
- قلة المصادر والمراجع التي تتعلق بالجانب التطبيقي.

ومهما يكن من صعوبات، فإنها كانت في كثير من الأحيان محفزة ودافعة إلى المزيد من التحدي وخوض غمار هذه التجربة العلمية التي كانت ممتعة بحق.

بعد اطلاعنا على ما كتب حول موضوع (التداولية عند الجرجاني) وجدنا مذكرة كانت لنا خير معين في إنجاز هذا البحث بعنوان:

-"قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني".ثقبايث حامدة (مذكرة لنيل شهادة الماجستير). ويكمن الاختلاف بين هذه المذكرة وبين بحثنا في كونها درست التداولية عند الجرجاني بصفة عامة، بينما بحثنا ركزنا فيه على اللسانيات التداولية.

ولتحقيق أهداف هذا البحث اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها:

- التداولية عند العلماء العرب "مسعود صحراوي".
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر "محمود أحمد نحلة".
- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية "عبد الهادي بن ظافر الشهري".
- المقاربة التداولية "فرنسواز أرمينكو" من ترجمة سعيد علوش.

وفي الأخير نتقدم بالشكر الخالص والامتنان لكل من أعاننا على إتمام هذا البحث وإخراجه على الصورة التي صار عليها، ونخص بالذكر الأستاذ المشرف:"**الدكتور عبـد الفتاح جحيش**" الذي كان لنا عونا طوال هذا البحث.

مدخل

I. حياة الإمام عبد القاهر الجرجاني

1. سيرتــه

هو "عبد القاهر الجرجاني" بن عبد الرحمان أبو بكر النحوي، فارسي الأصل جرجاني الدار، عالم بالنحو والبلاغة، أخذ النحو بجرجان عن الشيخ أبي الحسن محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث الفارسي نزيل جرجان، ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، وقرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدباء وتصدر بجرجان، وحثت إليه الرحال، وصنف التصانيف الجليلة، وكان رحمه الله ضيق العطف لا يستوفي الكلام على ما يذكره مع قدرته على ذلك.[1]

وقد عرف عنه سعة العلم و غزارته، واشتهر بعلم النحو، حتى كان يسمى عبد القاهر الجرجاني النحوي، وله مصنفات كثيرة في النحو، ولكن جهوده في علم البلاغة فاقت جهوده في علم النحو، بما أحدث فيها من آراء ووطد من نظريات، ومن ثم معرفة مدى علمه الغزير الذي جعل العلماء والأدباء بعده يلقبونه إمام البلاغيين، لما بسطه في كتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، فهو عالم فاضل من علماء جرجان، وهي مدينة تقع بين طبرستان وخراسان في بلاد فارس[2]، إذ نشأ فيها، ولما كان فقيرا فإنه لم يخرج لطلب العلم لفقره، وإنما تعلم في جرجان، حتى بلغت شهرته الآفاق، وأضاءت مؤلفاته المكتبات، لأنه أنبه من صنف في علم البيان و البديع، وعليه فإن عبد القاهر الجرجاني كان "عالما دينيا وقف تفكيره ووهب حياته للدفاع عن الإسلام، وكان خير مدافع ومما يدلنا على تدينه إضافة إلى ما ذكره بعض مترجميه ما نلمسه في الدلائل من أقوال تدل على سمو عواطفه الدينية، فقد جعل ذكر الله سبحانه وتعالى دائما واضحا في كتاباته فكان يستهل تقريبا كل فقرات مصنفة الدلائل بذكر العلي القدير، جاعلا جمل الاستعانة بالله في أكثر فصول الكتاب، ومن ذلك قوله:"ونسأل الله الهداية"، "والله الموفق للصواب..." "...أستعين بالله"[3] وهكذا نلاحظ على الشيخ "عبد القاهر الجرجاني" الدقة في اختيار الفقرات والفصول اختيارا يناسب المعنى الأساسي للفكرة، وكما هو ملاحظ أن عبد القاهر الجرجاني كان متأثرا بالقرآن الكريم في تعبيراته، كما توصل إلى أن الألفاظ تبع للمعاني في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق حسب ترتب معانيها في النفس.

---

[1] جمال الدين القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ج2، ص188.

[2] ياقوت الحموي:معجم البلدان، تح: صلاح الدين الهواري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ج2، ص139.

[3] هند جميل صالح ناتيه: مصادر الإمام عبد القاهر الجرجاني في بلاغته، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1407هـ، ص02-03.

2. شيوخــه

لقد اغترف الإمام عبد القاهر علمه الزاخر على يد أستاذين كبيرين من أعلام النحو وهما:

أ. أبو الحسين محمد بن الحسين بن عبد الوارث النحوي الفارسي نزيل جرجان[1]، وأخذ أبو الحسين علم العربية من خاله الشيخ أبي علي الفارسي صاحب كتاب (الإيضاح)، حيث قرأ هذا الكتاب لتلميذه عبد القاهر، لذلك فقد عني عبد القاهر بهذا الكتاب عناية فائقة فوضع عليه شرحا بلغ زهاء ثلاثين مجلدا، وسماه (المغني) ثم اختصر هذا الشرح في كتاب صغير سماه (المقتصد) في نحو ثلاث مجلدات، ولأبي الحسين تصانيف متعددة منها: كتاب الهجاء وكتاب الشعر، وتوفي في مدينة جرجان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة من الهجرة.[2]

ب. أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني المتوفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة من الهجرة[3]، كان أديبا كاملا اغترف عبد القاهر من علمه وبحره، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ[4] به وشمخ بأنفه معتزا بالانتماء إليه، ولأبي الحسن تصانيف منها كتابه الشهير (الوساطة بين المتنبي و خصومه).[5]

3. منزلتــه العلميــة

برع "الجرجاني" في فنون شتى حيث يعد من علماء النحو والصرف والبلاغة والنقد والأدب، وذاع صيته، وكان ذا مكانة رفيعة في كل هذه الفنون، وذلك ثمرة لثقافته الواسعة وإطلاعه المتواصل[6]، فقد كانت ثقافة عبد القاهر ثقافة عربية خالصة، وقد أعانه عقله وذكاؤه على استيعاب كل ما كان في عصره من ثقافة، ومكنته مواهبه الخاصة من الإفادة بما كتب العلماء والأدباء الذين سبقوه، فقد أخذ النحو بجرجان عن الشيخ أبي الحسين كما سبقت الإشارة إليه سابقا وأمدته دراسته النحوية بما عمق به نظريته في النظم.

---

[1] إنباه الرواة: ج2، ص188، مصدر مذكور.

[2] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1993، ج18، ص186.

[3] المصدر نفسه : ج14، ص14.

[4] ابن عباد الطالقاني : المحيط في اللغة، تح: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1971، ج4، ص185.

[5] معجم الأدباء: ج4، ص16، مصدر مذكور.

[6] ابن تعري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1929، ج5، ص108.

4. تلاميـــذه

تتلمذ على يد الإمام "عبد القاهر الجرجاني" مجموعة من العلماء نذكر منهم:

أ. أحمد بن إبراهيم بن محمد الشجري أبو نصر:

و هو من العلماء المشهورين البارزين في اللغة عامة و النحو خاصة، له مصنفات كثيرة، وقرأ عن عبد القاهر كتاب (المقتصد)، وتوفي سنة تسعين وأربعمائة من الهجرة.[1]

ب. أحمد بن عبد الله المهاباذي الضرير النحوي:

لم تذكر التراجم عن هذا العالم سوى أنه نحوي وله كتاب (شرح اللمع) لابن جني ولم تزد على ذلك، توفي سنة خمسمائة من الهجرة.[2]

ج. أبو زكرياء يحي بن علي بن محمد بن الخطيب التبريزي:

كان أحد الأئمة في النحو واللغة والأدب، نشأ ببغداد وقرأ الأدب عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وأبي العلاء المعري وغيرهما، وأخذ عنه الخطيب البغدادي أحمد بن ثابت وابن الجواليقي وله مؤلفات منها: (تفسير القرآن العظيم وإعرابه، وشرح الحماسة، وشرح المفضليات، وشرح اللمع لابن جني، وشرح ديوان المتنبي، وشرح سقط الزند، والكافي في العروض والقوافي، وتهذيب إصلاح المنطق وغيرها)، وتوفي سنة اثنتين وخمسمائة.[3]

د. أبو الحسن علي بن أبي زيد بن محمد بن علي الفصيحي:

سمي بالفصيحي لكثرة تدريسه فصيح ثعلب، قرأ النحو عن عبد القاهر وبرع فيه حتى صار من أعرف أهل زمانه به، أخذ عنه جماعة منهم: أبو نزار النحوي الحسن بن صافي أبي الحسين الملقب بـ"ملك النحاة"، وأبو الفوارس الصيفي الشاعر الملقب بـ"حيص بيص"، توفي سنة ست عشرة وخمسمائة من الهجرة ببغداد.[4]

---

[1] إنباه الرواة: ج2، ص190، مصدر مذكور.

[2] معجم الأدباء: ج3، ص219، مصدر مذكور.

[3] إنباه الرواة: ج4، ص22، المصدر السابق.

[4] معجم الأدباء: ج15، ص22، المصدر السابق.

هـ. أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد الأبيوردي:

أحد قراء أبيورد، أديب ولغوي وشاعر ومؤرخ، أخذ العربية عن عبد القاهر الجرجاني، وقال الأبيوردي في الجرجاني:" ما مقلت عيني لغويا مثله"، وكان فاضلا في العربية والعلوم الأدبية، وكان حسن السيرة جميل الأمر حسن المنظر من الرجال.

أخذ الأبيوردي عن كثير من العلماء منهم: إسماعيل بن مسعدة الجرجاني، وعبد الوهاب بن محمد بن الشهيد، وأبو بكر بن خلف الشيرازي، وأبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندي وعبد القاهر الجرجاني النحوي، وقد ولي الأبيوردي خزانة دار الكتب بالنظامية ببغداد، وله تصانيف كثيرة منها: (تاريخ أبيورد، والمختلف والمؤتلف، ونهزة الحافظ) وغيرها، وتوفي فجأة مسموما بأصفهان يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة من الهجرة.[1]

5. مؤلفاتـــه

إن مما خلفه "الجرجاني" من تراث علمي، ونتاج أدبي دليل على سعة ثقافته وخصب فكره، ومن هذه المصنفات ما يلي:

أ. **دلائل الإعجاز**: وقد طبع وشرح أكثر من مرة، ومن هذه الطبعات و الشروح تلك التي صدرت في مصر سنة 1902، ثم أعيد طبعها ونشرها سنة 1912، مصححة من الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية، ثم الشيخ محمد رشيد رضا الذي علق حواشي الكتاب وصحح طبعته، كما قام بتحقيقه كل من الدكتورين الشقيقين: محمد رضوان الداية وفايز الداية في طبعة صدرت في دمشق سنة 1983، وكذلك محمود شاكر في طبعة صدرت في القاهرة سنة 1992، واعتنى به أيضا الدكتور ياسين الأيوبي تشكيلا وشرحا وتنسيقا في طبعة صدرت في بيروت سنة 2002.

وهذا الكتاب هو زبدة نتاج عبد القاهر، والأثر الأنفس من بين مؤلفاته، بل هو الأثر الأنفس من بين كتب النحو والبلاغة، إذ من خلاله يكون قد أسس لنظرية متكاملة عرفت فيما بعد بنظرية النظم، والتي سنقوم بتداول قضاياها التداولية في هذا البحث.

ب. **أسرار البلاغة**: وهو كتاب مطبوع متداول، وهو المعلم الثاني البارز في نتاج الرجل، وهو خاص بعلم البيان خاصة.

ولا يزال هذان الكتابان (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) عمدة الباحثين في البيان العربي حتى الآن، وهما أهم مصدر "للسكاكي" (ت 629هـ) في كتابه (المفتاح)، وأكثر أراء "السكاكي" ومذهبه في البيان

[1] معجم الأدباء: ج17، ص234، مصدر مذكور.

مستمد منهما، وعلى نهج السكاكي سار الخطيب (ت 739هـ) في الإفادة من عبد القاهر والانتفاع بآرائه في تقويم البيان العربي ورفع صرحه العلمي السامق، مما ظهر أثره واضحا جليا في كتابه (الإيضاح)، وفي أول عصر النهضة بدأ الاهتمام بكتابي عبد القاهر ينمو، والإقبال عليهما يزداد. [1]

ج. **العوامل المائة في النحو**: و هو كتاب مطبوع، أقبل عليها العلماء فشرحوه وبسطوه وعلقوا عليه وهو مشهور متداول، ووضعت عليه شروح كثيرة، وترجم إلى التركية.

د. **الرسالة الشافية**: وهو كتاب يتحدث فيه عن إعجاز القرآن، وبيان عجز العرب عن معارضته، وتفنيد رأي القائلين بالصرفة، وقد نشرت هذه الرسالة مع رسالتين أخريين، واحدة للرمّاني والثانية للخطّابي، في كتاب واحد، بتحقيق محمد زعلول سلام ومحمد خلف الله.

هـ. **الجمل في النحو**: وهو كتاب مختصر في النحو، وقد حقق مرارا، ويسمّى "الجرجانية".

و. **المغني في شرح الإيضاح**: ويبلغ ثلاثين مجلدا وهو كتاب كبير لأبي علي الفارسي (ت 377 هـ).

ز. **المقتصد**: وهو كتاب مطبوع، حققه كاظم بحر المرجان، وهو ملخص (المغني في شرح الإيضاح) في ثلاث مجلدات.

ح. **الإيجاز**: وهو مختصر لكتاب (الإيضاح).

ط. **التكملة أو التتمة**: وهو عبارة عن إضافات أو زيادات لبعض مسائل النحو لكتاب (الإيضاح).

ي. **شرح الفاتحة**: وقد يكون هذا الشرح تطبيقا لنظريته في النظم أو لمنهجه في التفسير.

6. وفاتـــه

ولم يزل عبد القاهر مقيما بجرجان يفيد الراحلين إليه والوافدين عليه، إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة وقيل سنة أربع وسبعين وأربعمائة، الموافق لسنة 1078 أو سنة 1082 للميلاد.[2]

[1] محمد عبد المنجم خفاجي وعبد العزيز شريف: البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1، 1992، ص5.

[2] دلائل الإعجاز: ص03، مصدر مذكور.

II. التعريف بكتاب "دلائل الإعجاز"

1. وصف الكتاب

كتاب (دلائل الإعجاز) ألفه الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، خرج هذا الكتاب إلى الوجود كنسخة ورقية مطبوعة في عدة طبعات مختلفة نذكر منها: دلائل الإعجاز في علم المعاني الإمام عبد القاهر الجرجاني صححه: الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، والأستاذ المحدث الشيخ: محمد محمود التركزي الشنقيطي، ووقف على تصحيحه وعلق على حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، والناشر مكتبة القاهرة بمصر، وسنة الطبع: (1380هـ- 1961م)، وعدد صفحاته ثلاثمائة وستة وأربعين (346)، واعتبرت هذه النسخة أول طبعة نشرت بعدما كانت محفوظة كمخطوط ورقي في المكاتب، ثم خرج بطبعة أخرى من تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة (1389هـ- 1969م) بصفحات عددها أربعمائة وتسعون (490)، وهي النسخة الثانية، وتلتها طبعات أخرى من دور طبع مختلفة بتحقيقات كثيرة منها: طبعة بتحقيق محمد محمود شاكر من مكتبة الخانجي بالقاهرة، وهذه النسخة منشورة في مواقع المكتبات الإلكترونية، رغم أن واجهة الكتاب لم تتضمن سوى عنوان الكتاب واسم مؤلفه واسم المحقق، ولم يذكر رقم الطبعة وسنة الطبع، وعدد صفحاته ستمائة وأربعة وثمانين، وهي النسخة المعتمدة في هذا البحث.

يبدأ "عبد القاهر" مقدمة الكتاب بتوضيح فضل العلم عامة، وفضل علم البيان خاصة، مع توضيح أهميته وجهل الناس بحقائقه، ويبين غرضه من معرفة الإعجاز، فليس ما جاء في علم البيان أو المصطلح الذي عرفه علماء البلاغة، بل يريد معرفة أصل الأداء اللغوي البياني عند العرب.

تحدث في أحد الفصول عن أخطاء الناس الذين يزهدون في الشعر، أو في النحو، أو في العلم بمعاني البيان والبلاغة والفصاحة، فاعتبر هذا خطأ، لأنه إذا استحسن الإنسان شيئا فيجب أن يكون لاستحسانه هذا سببا معروفا، كما ذكر أهمية البلاغة ومعناها، والبيان، والفصاحة، وذكر أن فصاحة الكلمة المفردة لها أسباب معلومة، ثم ذكر في فصل آخر أن الغرض من نظم الكلم أن تتناسق دلالاتها وليس أن تتوالى ألفاظها في النطق.

ثم يعرض في فصل آخر بلاغة اللفظة المفردة، إذ عرض أوجها كثيرة مثل الاستعارة، والمجاز، والتمثيل، والكناية، ثم عرض وجوب بلاغة النظم كالاستفهام، والوصل، والفصل، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والقصر، وشرح المجاز العقلي وبلاغته، وقام بشرح أيضا بلاغة النظم التي أخذت الكتاب كله، فاقتصر الكتاب على شرح نظريته في النظم وكيفية تطبيقها.

وتأتي أهمية الكتاب من الأهمية التي يحتلها مؤلفه، حيث لقي الكتاب قبولا لدى الدارسين في الأزمنة المختلفة وقام بشرحه وتلخيصه ومناقشته العلماء في كتب لهم، من بينهم محمد أبو موسى في كتابه مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني.

2. سبب التأليف

إن الناظر إلى كتاب "عبد القاهر الجرجاني" يجد رجلا يحمل سيفا، لا يألو أن يشهره دائما في وجه خصمه، إلا أن الرجل طغى عليه حب العلم، ولاسيما إذا كان في كتاب الله، فالقارئ لكتابه يلمس تلك المنافحة التي يحسها بيده وجنانه من قبل الجرجاني في دفاعه عن نظرية النظم على طريقة المتكلمين، ورده وجه الإعجاز بسببها.

إن "عبد القاهر الجرجاني" يصرح تارة ويلمح أخرى لأناس قد سبقوه في الكلام عن وجه الإعجاز بفكر وطريقة لم يرض بها الجرجاني، ويقصد الجرجاني الأشعري عبد الجبار المغترلي، فيمكن القول: إن الجرجاني انتهى إليه القول في قضية الإعجاز، وسبق الجرجاني بالكلام عن قضية النظم من قبل عبد الجبار، والباقلاني، والجاحظ، وغيرهم من علماء البلاغة المرموقين.[1]

ويرد "عبد القاهر" في هذا الكتاب على المعتزلة؛ لأنهم ردوا الفصاحة للفظ فقط دون المعنى، وأن المعاني عارية مطروحة في الطريق، فمن ألبسها لفظا رائقا كان أولى وأحق بها، ثم يستنكر على من فسر الفصاحة "بأنها خصوصية في نظم الكلم، وضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، أو على وجوه تظهر بها فائدة".[2]

أو ما أشبه ذلك من القول المجمل بأنه لو كان كافيا في معرفتها، ومغنيا في العلم بها، لكفى مثله في الصناعات كلها، وأن بلاغة القرآن لم تكن في ألفاظه دون معانيه.

3. مضمون الكتاب

لا جرم أن "عبد القاهر الجرجاني" أرسى في كتابه (دلائل الإعجاز) دعائم أوسع نظرية في البلاغة العربية، ألا وهي نظرية النظم التي عالج في ضوئها مصطلحات البلاغة العربية، وسعى جاهدا ليثبت من خلالها أن البلاغة تكون بالنظم.

وقد فصل القول في هذه النظرية في سائر أجزاء كتابه هذا، وأدار عليها أبواب المعاني وشعبه، وأجرى عليها تطبيقاته الواسعة في كتابه (أسرار البلاغة).

---

[1] سعيد بحيري: دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، زهراء الشرق، القاهرة، دط، 1973، ص15.

[2] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دس، ص43.

وحين يحاول المرء أن يلم شتات هذه النظرية الموزعة في كتابه (دلائل الإعجاز) يجد نفسه مضطرا إلى تتبعها في كل موضع وردت فيه، ليحاول أن يكوّن منها هيكلا منسجما، فقد نثر عبد القاهر الجرجاني نظريته خلال فصول الكتاب ذاكرا لها حينا ومتحدثا عن أهميتها حينا آخر، مؤكدا العلاقة بينها وبين النحو أحيانا كثيرة، مبينا الأسس التي تستند إليها طورا ولا يغيب عنه في خضم هذا كله أن يرُدّ باستمرار على الشبهات التي قد تعرض حول بعض جوانب النظم، ناعيا سوء الفهم وقصور الذوق، والتقليد الأعمى.

وإعادة بناء النظرية كما يرى عبد النبي اصطيف يكشف عن مدى تمسك عبد القاهر والتزامه بالمصطلح الذي يتعامل معه.[1]

و النظم هو تعليق الكلم بعضه ببعض وجعل بعضه بسبب من بعض.[2] ولهذا أضحت فكرة النظم فكرة السياق أو (العلاقات)، إذ هي فكرة تتناول الألفاظ المفردة من جهة ثم هذه الألفاظ بعد دخولها في التأليف والتركيب من جهة أخرى، والمهم هو مجموع العلاقات التي يحدثها هذا التأليف أو التركيب أو النظم بين هذه المفردات.

غير أن الكلام لم ينته في النظم، بل هناك الشرط الأهم الذي يتمم عملية التركيب أو النظم، ألا وهو النحو. يقول "عبد القاهر الجرجاني" :" اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها".[3] فالنحو على هذا يعد من أهم الأدوات التي استعان بها عبد القاهر في بناء نظريته؛ ولذلك عدت هذه الفكرة التي بنيت عليها فكرة النظم، نحوية محضة.

ويرى أحمد مطلوب أن كتاب (دلائل الإعجاز) ينفرد بدراسة موضوعات نحوية من وجهة بلاغية، ولمعت شخصية عبد القاهر في تقديمه للموضوعات النحوية، بأنه أعطاها حياة جديدة، فكان يتعامل معها بأسلوب العالم الأديب.[4]

وليس النحو عند "عبد القاهر الجرجاني" الاقتصار على علامات الإعراب، وما يطرأ على الكلمات، وإنما معاني العبارات، "فالعمدة عنده ليست في معرفة قواعد النحو، ولكن فيما تؤديه هذه القواعد: فالاعتبار

[1] عبد الله اصطيف: نظرية النظم عند الجرجاني، مجلة أقلام، العدد 11، ص236-237.

[2] دلائل الإعجاز: ص04، مصدر مذكور.

[3] المصدر نفسه: ص81.

[4] أحمد مطلوب : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات للنشر، ط1، 1973، ص56.

بمدلول العبارات لا بمعرفتها، ولذلك يمكن القول على النحو المرتبط بالنظم بأنه ليس النحو المجرد بل ما اصطلح على تسميته بالإمكانات النحوية".[1]

وعلى هذا نستطيع القول أن النحو عند عبد القاهر لم يعد العلم الذي يبحث في أواخر الكلمات بغرض الإعراب، وإنما هو يوحي بدلالات الألفاظ النفسية، وبه يفرق بين جيد الكلام ورديئه، ولذلك فرق عبد القاهر بين نظم الحروف ونظم الكلم، فالأولى توالي الحروف بالنطق وليس نظمها بمقتضى المعنى، وأما نظم الكلم فهو اقتضاء المعاني وآثارها وترتيبها حسب ترتيبها في النفس.[2]

ولا يخفى أن النظم عند "عبد القاهر" مرتبط ارتباطا خاصا بالإعجاز، وكان حديث "عبد القاهر" المرتبط بالنظم مرتبطا تلقائيا بالإعجاز؛ فعبد القاهر يرفض فكرة الصرفة، فالإعجاز يرجع إلى بلاغة القرآن وفصاحته، والإعجاز لابد أن يكون في وصف معلوم للمطالب به، فلا يكون عجز حتى يثبت عنه معجوز عنه معلوم، ويجب أن يكون هذا الوصف وصفا تجدد بالقرآن، ولا يمكن أن يكون في الكلمة المفردة، لأن هذا يقتضي أن تكون حدثت فيها مزايا لم تكن لها قبل نزول القرآن، فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه، لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف.[3]

وبعد حديثه عن النظم يبدأ عبد القاهر في معالجة أمور تتعلق بالنظم ولها ارتباط وثيق فيه، فيتحدث عن: اللفظ والمعنى، والمعنى ومعنى المعنى.

أ. اللفظ والمعنى

وقد فصل "عبد القاهر" القول في اللفظ والمعنى، وأكد شدة الالتحام بينهما، فهما وجهان لعملة واحدة، لا مجال للفصل بينهما، غير أن الألفاظ تبع للمعاني، فالإنسان حين يكتب لا يفكر بالألفاظ بل يطلب المعنى ويعمل فكره فيه، وما أن يصل إلى الفكرة حتى يأتيه اللفظ منقادا بين يديه، وعلى هذا فأي تبديل في التفكير، لابد أن يتبعه تبديل في الكلام، يقول عبد القاهر:" لا يُتصوَّر أن تعرف للّفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ...، تجدها تترتب لك... بحكم أنها خدم للمعاني... وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق".[4]

---

[1] محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1984، ص174.

[2] دلائل الإعجاز: ص49، مصدر مذكور.

[3] المصدر نفسه: ص385-391.

[4] المصدر نفسه: ص53-54.

ولابد من الإشارة إلى أن الجانب اللفظي الذي دعا إليه عبد القاهر هو الصياغة، وجانب المعنى الذي دعا إليه هو المعنى المصور الذي لا وجود له إلا بعملية الصياغة.

ب. المعنى ومعنى المعنى

فالمعاني عند عبد القاهر ليست على مستوى واحد، والكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج، فتقول: خرج زيد، وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على (الكناية) و(الاستعارة) و(التمثيل) فالكناية مثلا: هي أن يراد بها إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورادفه، مثال ذلك قولهم: هو كثير الرماد، يصفونه بالكرم.[1]

ويلخص "عبد القاهر" مفهوم هذا المصطلح بقوله:" وإذا عرفت هذه الجملة عبارة مختصرة وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر".[2]

يقول "إحسان عباس" عن نظرية "عبد القاهر" هذه:" انتقل من تفاوت الدلالات إلى مرحلة لم ينتبه إليها أحد قبله من النقاد، فقد خيل إليه أن الناس أساءوا فهم نظرية الجرجاني المعاني المطروحة حين لم يلحظوا تفاوت الدلالات الناجم عن طريق الصياغة، فقولك: خرج زيد، قول تصل منه إلى المقصود بدلالة اللفظ وحده، ولكنك حين تقول هو كثير رماد القدر، فإنك تطرح أولا دلالة أولية لتنتقل منها إلى دلالة ثانية تصل بها إلى غرض جديد... فمرحلة معنى المعنى هي المستوى الغني من الكناية والاستعارة والتشبيه، وفي هذه المرحلة يكون التفاوت أيضا في الصورة والصياغة، لأنه تفاوت في الدلالة المعنوية، ومن مرحلة المعنى يتكون علم المعاني، ومن مرحلة معنى المعنى يجيء علم البيان".[3]

يشير "عبد القاهر" إلى أن الصورة البيانية، وهي إحدى وسائل نقل معنى المعنى لا تقف وظيفتها عند نقل المعنى، ولكنها تتعدى ذلك إلى نقل انفعال الأديب بالمعنى، ولهذا السبب يحدث نوع من الإثارة عند المتلقين لها، فتنجذب أفئدتهم نحوها انجذابا لا شعوريا.

إن كل ما ذكر في دلائل الإعجاز هو توضيح لفكرة عبد القاهر الأساسية التي أقام عليها الكتاب، ألا وهي النظم، فجاء مثلا بالتقديم والتأخير، والوصل والفصل، والذكر والحذف، وغيرها...، ليكون ذلك تطبيقا

[1] دلائل الإعجاز: ص66، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص70.

[3] إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي، دار الأمانة، بيروت، لبنان، ط1، 1981، ص428-429.

على هذه النظرية، وليبين معنى بلاغة النظم، وجاءت الألفاظ في هذه الأساليب على نحو معين لأنها تابعة للمعاني.

4. مصادر الكتاب

الكتاب قد ألف من أجل بيان وجه الإعجاز في القرآن، إذا فمادته الأولى هي القرآن، ثم إن "الجرجاني" اعتمد على عالمين جليلين؛ وهما سيبويه والجاحظ، فهو لم ينتفع بهما في الجزئيات فحسب وإنما دخلا عنده في صلب مادته، فقد ذكر الجرجاني أن الخليل وسيبويه بلغا في فقه النحو مبلغا لم يسبقهما إليه أحد، ولم يلحقهما فيه أحد، وأنهما ذروة هذا العلم، ثم ذكر أن الجاحظ بلغ في بابه (علم الشعر ومعرفة جوهره وطابعه ومعدنه) مبلغ الشيخين في علم النحو، وتفرد الجاحظ في علم الشعر كتفرد الشيخين في علم معاني النحو.[1]

[1] محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1418هـ، 1998م، ص24.

الفصل الأول:
اللسانيات والتداولية
-النشـــأة والأسس-

تمهيـــد

شهدت الدراسات اللسانية تحولات جذرية في الحقل المفاهيمي، فبينما اهتم اللسانيون بالبنى اللغوية من حيث التركيب والدلالة، ظهر مصطلح جديد يميل إلى رؤية خاصة للغة، إنه مصطلح التداولية.

وتعد التداولية مبحثا من مباحث الدراسات اللسانية التي ظهرت ونمت في سبعينيات القرن العشرين، وهي كما وصفها "فرانسواز أرمينكو" "بأنها درس جديد وغزير إلا أنه يمتلك حدودا واضحة... تقع التداولية كأثر لدروس حيوية في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية، إنها غير مألوفة حاليا"[1]، ولهذا السبب تداخلت في التداولية تخصصات مختلفة زادتها تعقيدا، غير أنها _كمبحث في قمة تطوراته_ لم يحدد بعد في الحقيقة ولم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد افتراضاتها واصطلاحاتها، فهي تقع في مفترق الطرق، حيث تلتقي اللسانيات والمنطق والسيميائيات والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع...، فكافة هذه العلوم جسدت الساحة العلمية اليوم، وفي مختلف المجالات مما ساهم في توسيع مختلف العلوم وجعل دراستها للظواهر أكثر وضوحا ودقة وشمولية.

ومن أسباب ظهور التداولية في البحث اللغوي، أنها ثورة للعديد من اللغويين ضد المناهج الشكلية التي سيطرت على الدراسات اللغوية في كل من أمريكا وأوروبا طوال النصف الأول من القرن العشرين، فالتداولية نشأت كرد فعل على التوجهات البنيوية فيما أفرزته من تصورات صورية مبالغ فيها، خاصة على اللساني الأمريكي تشومسكي وأتباعه، وكذلك الغلو في الاعتماد _عند وصف الظواهر اللغوية_ على التقابل المشهور الذي يمثل الاستعمال الحقيقي للغة ونظامها، فالشكليون حصروا الدراسة في اللغة كبنية أو نظام معزول عن سياق دراسة المعنى مع تخليهم عن الظواهر الكلامية كونها أشياء عارضة.

والتداولية تهتم بدراسة اللغة في الاستعمال، آخذة بعين الاعتبار سياق التداولية وأثره على اللغة من الناحية الشكلية والمضمونية[2]، فتدرس اللغة من جانب الشكل والمضمون معا.

كما أنها تعد مذهبا لسانيا يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة[3]، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية، غير أنها تهتم بجوانب عديدة في عملية التواصل.

---

[1] فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الأنماء القومي، الرباط، ط1، 1986، ص07.

[2] محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، دار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2008، ص59.

[3] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص05.

المبحث الأول: اللسانيات (التعريف والجذور)

المطلب الأول: تعريف اللسانيات.

المطلب الثاني: نشأة اللسانيات وتطورها.

المطلب الثالث: خصائص اللسانيات.

إن اللسانيات لم تنشأ من العدم، فلابد أن تكون سبقتها مفاهيم عدة تناقلها الإنسان جيلا بعد جيل. فأول ظهور لهذه اللفظة كان في الدراسات اللغوية الفرنسية سنة 1833، ومع مطلع القرن العشرين أصبحت اللسانيات علما قائما بذاته تزامنا مع صدور كتاب "محاضرات في الألسنية العامة لـ"فرديناند دوسوسير"، هذا الرجل الذي كان له الفضل الكبير في المشوار الذي حققته اللسانيات وأصبحت نموذجا ذا أهمية وقيمة نظرية ومنهجية متميزة في حقول المعرفة الإنسانية، فبمجيء هذا العالم تغير واقع الدراسات اللغوية، حيث أصبحت دراسة اللغة دراسة خاضعة للتجربة، كما تميز الفكر اللساني بطرحه لمجموعة من الثنائيات المتقابلة انتشرت بين الدارسين في حقول معرفية عديدة، واكتسبت أهمية كبيرة في الدرس اللساني الحديث.

المطلب الأول: تعريف اللسانيات

1. لغـة

يرجع مصطلح اللسانيات في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (ل س ن)، يقول "ابن فارس" (ت395هـ): "اللام والسين والنون أصل صحيح واحد يدل على طول لطيف غير بائن في عضو أو غيره، من ذلك اللسان وهو معروف، والجمع ألسن فإذا كثرت فهي ألسنة، ويقال لَسَنْتَه إذا أخذته بلسانك، قال طرفة [الرمل]:

وَإِذَا تَلْسُنُنِي أَلْسُنُهَا إنَني لَسْتُ بمَوْهُونٍ غَمْر

وقد يعبر باللسان عن الرسالة فيؤنث حينئذ، ليقول الأعشى [البسيط]:

إني أَتَتْنِي لِسَان لا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عُلْوَ لا عَجَبَقٌ فِيهَا وَلا سَخَرُ

واللسَنُ: جودة اللسان والفصاحة، واللُّسْنُ: اللغة، يقال لكل قوم لِسْنٌ أي لغة، وقرأ ناسٌ ‹‹ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ›› إبراهيم/ 04، ونعل مُلسّنَةٌ: على صورة اللسان، قال كثير [الطويل]:

لهم أزر حمر الحواشي يَطَوْنَها بأقدامهم في الحَضرميِّ الملسّن

ويقولون: الملسون: الكذاب، وهو مشتق من اللسان لأنه إذا عرف بذلك لسن أي تكلمت فيه الألسنة".[1]

ويقول "الجوهري" (ت 393هـ): "لَسَنَ: اللِّسانُ: جَارِحَةَ الكَلامِ، وقد يكنى بها عن الكَلِمَة فتؤنث حينئذ. فمن ذكّره قال في الجمع: ثَلاثَةُ ألْسِنَة، مثل: حِمارُ وأحْمِرَة، ومن أنّثه قال: ثَلاثُ ألْسُنْ، مثل: ذِراع وأَذْرُع: لأن ذلك قياس ما جاء على فعال من المذكر والمؤنث. واللَّسَنُ بالتحريك: الفَصَاحة. وقد لَسِنَ

[1] ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: محمد هارون، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط2، 1991، ج2، ص476.

بالكسر فهو لِسَنٌ وألْسَنٌ، وقومٌ لُسْنٌ. وفلان لِسان القوم، إذا كان المتكلم عنهم. واللِّسانُ: لِسَانُ الميزان. ولَسَنْتُه: إذا أخذته بِلِسانِكَ".[1]

ويقول "الأصفهاني" (ت 502هـ) في مادة (لَسَنَ):" اللِسانُ الجارح وقوته وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام:﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ طه/27. يعني به من قُوَةَ لِسَانِهِ فإن العُقْدَة لم تكن في الجَارِحَة، وإنما كانت في قوته التي هي النطق به، ويقال لكل قوم لِسَانٌ. وقوله تعالى:﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ الروم/ 22.

واختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغَاتِ، وإلى اختلاف النَغَماتِ، فإن لكل إنسان نغمة مخصوصة يميزها السمع، كما أن له همزة مخصوصة يميزها البصر".[2]

ما لاحظناه في التعريف اللغوي للسان عند كل من ابن فارس والجوهري والأصفهاني أن كل واحد منهم وظف تعبيره الخاص، لكن دلالات الجذر (ل س ن) لا تخرج عن معاني: العضو، والفصاحة، واللغة، واللهجة. فاللسان ليس إلا جزءا محدودا من اللغة، وهو إنتاج مجتمعي حادث عن ملكة اللغة، وعن أنواع التفاهم والاتفاقات الضرورية التي أقرها المجتمع، لكي تتأتى ممارسة هذه الملكة عند الأفراد.

2. اصطلاحا

جاء في معجم اللسانيات لـ"جون دي بوا*" أن "اللسانيات هي العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع بعيدا عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية"[3]، فهي دراسة تأخذ من العلم سلما لها، وتعرض للغات البشرية كافة من خلال الألسنة الخاصة بكل قوم، وتدرس اللغة بعيدا عن مؤثرات الزمن والتاريخ والعرق.

والمقصد من هذه الدراسة بيان جوهر كل لغة من هذه اللغات، وإستراتيجية عمل كل منها والنظر إليها على أنها "منظومة كلية تتألف من مستويات متراتبة يستند الأعلى منها إلى الأدنى".[4]

---

[1] أبو نصر الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصِحاح العربية، تح: محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، د ط، 1430هـ، 2009، مادة (لسن).

[2] الراغب الأصفهاني: مفردات في غريب القرآن، تح: محمد أحمد خلق الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د ط، د س، مادة (لسن).

* جون دي بوا Jean _Paul Duboi عالم فرنسي (ولد عام 1950).

[3] أحمد قدور: مبادئ اللسانيات العامة، دار الفكر، دمشق، ط3، 2008، ص06. و وليد محمد السراقبي: الألسونية مفهومها مبانيها المعرفية ومدارسها، دار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة، بيروت، لبنان، ط1، 1440هـ، 2019م، ص14.

[4] المرجع نفسه: ص14-15.

إن اتجاه اللسانيات يدفع إلى "دراسة اللغات في واقعها المعيش إلى جانب دراستها في ماضيها المنقول إلينا"[1] فإن اللسانيات لا تتأبى على تناول اللغة _أية لغة إنسانية، حية كانت أم ميتة، عامية أو فصيحة_ بالدراسة العلمية التي يحدوها البحث المجرد عن أية معايير قديمة.

واللسانيات هي الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري، من خلال ألسنة خاصة بكل مجتمع، فهي دراسة تتميز بالعلمية والموضوعية.

العلميـــة: نسبة إلى العلم، فهو بوجه عام المعرفة وإدراك الشيء على ما هو عليه، وبوجه خاص دراسة ذات موضوع محدد وطريقة ثابتة، تنتهي إلى مجموعة من القوانين، والعلم ميزتان:

- نظري: يجادل تفسير الظواهر، وبيان القوانين التي تحكمها.
- تطبيقي: يرمي إلى تطبيق القوانين النظرية على الحالات الجزئية.[2]

الموضوعية: نسبة إلى الموضوعي وهو مشتق من الموضوع، أي كل ما يوجد في الأعيان والعالم الخارجي في مقابل العالم الداخلي أو الذات، والموضوعي هو كل ما تتساوى حالته عند جميع الدارسين على الرغم من اختلاف الزوايا التي يتناول من خلالها الموضوع، ومن هنا وجب أن تكون الحقائق العلمية مستقلة بعيدة عن قائليها، وبعيدة عن التأثر بأوهامهم وميولهم، فتحقق العلمية في البحث العلمي بالموضوعية والنزاهة، فالموضوعية حينئذ هي: طريقة العقل الذي يتعامل مع الأشياء على ما هي عليه، فلا يشوهها بنظرة ضيقة أو تحيز ذاتي.[3]

ويعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستخدم الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية:

- ملاحظة الظاهرة والتجريب والاستقراء المستمر.
- الاستدلال العقلي والعمليات الافتراضية والاستنتاجية.
- استعمال النتائج والعلائق الرياضية للأنساق اللسانية مع الموضوعية المطلقة.[4]

فاللسانيات هي دراسة اللغة على نحو علمي، فهي على العموم دراسة وصفية، وهو ما يعني أن اللغويين لا يقومون بإصدار قوانين صارمة وسريعة حول كيفية استخدام لغة معينة، بل يركزون على وصف القواعد التي يتقيد بها الناطق بهذه اللغة عن غير وعي منه.

---

[1] وليد محمد السراقبي: الألسونية مفهومها مبانيها المعرفية ومدارسها، ص15، مصدر مذكور.

[2] أحمد حساني: المباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1999، ص14.

[3] المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

المطلب الثاني: نشأة اللسانيات وتطورها

إذا أردنا البحث عن العمق التاريخي للسانيات علينا أن نقف عند القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي شهد بداية علم اللسانيات، إذ اكتشف "ويليام جونز*" سنة 1796اللغة السنسكرتية، وكشف عن منزلة هذه اللغة وما تقدمه للدرس اللغوي في أوروبا، فكان ينظر إلى أن هذه اللغة على الرغم من إمعانها في القدم فهي ذات بنية رائعة تفوق اللغة اليونانية واللاتينية كمالا وثقافة ولكن لا تعدم الصلة الوثقى بهاتين اللغتين "سواء من ناحية جذور هذه الأفعال، أم من ناحية الصيغ النحوية... ولا يسع أي لغويّ بعد تفحصه هذه اللغات الثلاث إلا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك زال عن الوجود".[1]

لقد كان اكتشاف هذه اللغة –السنسكرتية– منطلقا للدرس اللساني الخاص بهذه اللغة من جهة، وموئلا لعلم اللغة المقارن من جهة أخرى؛ فقد وضع "كارل شليجل*"سنة 1808 كتابا سماه (حول لغة الهنود وحكمتهم)، وقد بسط فيه ما طرحه سابقا "ويليام جونز"، وكتب بارتلمي كتابا بعنوان (قواعد اللغة السنسكرتية)، وآخر بعنوان (في قدم اللغات الفارسية والسنسكرتية الجرمانية والتجانس بينهما).[2]

ووضع "فرانز بوب*" سنة 1916 كتابه (منظومة تصريف الأفعال السنسكرتية)، وكشف فيه عن الروابط الرحمية بين اللغة السنسكرتية واللغات الأوروبية، كاللاتينية، والألمانية، وسميت آنذاك بـ(اللغات الهندوأوروبية).

وقد أشار "بوب" إلى بداية بحوث فعلية دقيقة عُمْدَتُها عقد مقارنات فيما بين النصوص القديمة لما بين اللغات من تطابقات في الأصوات، أو البنى الصرفية، أو غيرها.

وترمي هذه الأبحاث إلى تلمس الأصول التي توارثتها هذه اللغات، وتبيان الأصل الحقيقي لها، بعيدا عن شطحات الخيال، وبذلك يكون هذا الكتاب قد فتح الباب أمام أفق لساني جديد.[3]

فإذا كانت الدراسات اللسانية المقارنة قد ولت وجهها شطر العلوم الطبيعية تتكئ على منهجها، وتأخذ منها كثيرا من المصطلحات، فقد اتجه الدرس اللساني وجهة تاريخية، وهيمن علم التاريخ على الفكر عامة، ثم غدا محرق الدرس اللغوي فغدا أشبه بعلم تاريخي بعد أن كان ينظر إلى اللغة على أنها أشبه بالجسم البشري.

---

* وليام جونز William Jones (1746-1794) مستشرق بريطاني يعد كاتبا وشاعرا وقاضيا ،أحد علماء الهند القديمة اقترح وجود علاقة بين اللغات الأوروبية الهند آرية والتي صاغها على أنها هندوأوروبية.

[1] الألسنية: ص18، مرجع مذكور.

* كارل شليجل Karl Schlegel (1772-1829) كاتب وشاعر وناقد ألماني ،يعتبر المنظر الحقيقي للرومانسيين الأوائل.

* فرانز بوب Franz Bopp (1791-1867) لغوي وتربوي ألماني.

[2] يوسف غازي: مدخل إلى الألسونية، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق، ط1، 1985، ص23.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الانتقال بين الدرس اللساني المقارن والدرس التاريخي حصل بين الأعوام (1876-1886) مع المدرسة اللغوية التي كانت تسمى بـ(النحاة الجدد) أو (النحاة المحدثين)، فقد كان لهذا الأسلوب في الدرس اللساني أثره في هؤلاء النحاة، لما كان لعلم التاريخ ريادة علمية في القرن التاسع عشر.[1]

وقد كانت نقطة انطلاق (النحاة المحدثين) ما وقر في أذهانهم حول اللغات وطبيعتها من تصورات وصفية وآلية، وأكدوا أن أي تغير صوتي في اللغات يمكن أن يفسر بقوانين لا استثناء فيها، ذلك أن هذه التغيرات التي تلاحظ في وثائق الدرس الألسني التاريخي إنما مصدرها قوانين ثابتة لا تتغير إلا بالتوافق مع غيرها من القوانين.[2]

وتنظر هذه المدرسة إلى اللسانيات على أنها علم تاريخي، وترى أن الدرس التاريخي هو المسلك الوحيد في الدرس اللغوي والذي لا يسلك سبل هذا المنهج يتهم بقصور الرؤيا، ونقص المصادر، وكل ذلك عائد إلى سيطرة علم التاريخ وهيمنته في هذه الحقبة.

وكان من نتائج الاعتماد على البعد التاريخي في الدرس اللساني تشتت الدراسات اللسانية وبعثرتها، ورفضها أي تأصيل لغوي يقوم على التخيل، أو أي تفسير منطلقه ذات اللغة ولكنها جعلت اللسانيات تشق طريقها كعلم مستقل.[3]

وأفسحت مدرسة (النحاة المحدثين) السبيل إلى علم النفس ليكون عونا لها في البحث اللساني، ذلك أن في مقدوره تحليل روابط اللغة بالفكر، وشرع اللسانيون المحدثون يقترضون من علم النفس مصطلحاته وآلياته وفرضياته ومنهجه، وأخذوا يولون العامل النفسي لمتكلم اللغة اهتماما فائقا.

وتمخضت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن مسلك جديد في الدرس اللساني كان من أعلامه "أنطوان ماييه*"، و"فرديناند دوسوسير*"، وعمدته دراسة الظواهر اللغوية في مدة محددة دراسة وصف لا تدخل في حسبانها أية أفكار سابقة، ولا تحتكم إلى معايير الصواب والخطأ، وكان ظهور هذا المنهج بالوقوف على قيمة المحاضرات التي ألقاها "دوسوسير" على طلابه، وقاموا من بعده لجمعها، وهذا ما جعله

---

[1] أحمد قدور:مبادئ اللسانيات، ص10، مرجع مذكور.

[2] يوسف غازي: مدخل إلى الألسونية، ص24-25، مرجع مذكور.

[3] المرجع نفسه: ص26.

* أنطوان ماييه Antoine Meillet (1866-1936) من أهم علماء اللغويات الفرنسيين في النصف الأول من القرن العشرين ،درس تاريخ و تركيب اللغات الهندوأوروبية.

*فرديناند دوسوسير Ferdinand De Saussure (1857-1913) عالم لغوي سويسري شهير ،مؤسس علم اللغة الحديث ،عني بدراسة اللغة الهندية-الأوروبية، من أشهر أعماله بحث في "الألسونية العامة".

الرائد الحقيقي للدراسات الألسنية الوصفية، وهو كذلك مؤسس اللسانيات المحدثة، فقد وضح اختصاصها ومناهجها وحدودها، وأغنى الدراسات اللسانية بالكثير من الأفكار اللغوية.

المطلب الثالث: خصائص اللسانيات

إن ما اشتملت عليه جملة التعريفات السابقة تجعل من اللسانيات علما له تخصصه وله ما يميزه، إذ ما قورن بعلوم اللغة الأخرى مثل النحو والصرف، ومن ذلك:[1]

1. استقلالها عن بقية العلوم، كالنحو الذي كان وشيح الصلة بالمنطق.
2. توجهها إلى اللغة المنطوقة قبل المكتوبة.
3. الاعتناء بدراسة اللهجات، إذ هذه اللهجات "لا تقل أهمية عن سواها من مستويات الاستخدام اللغوي".[2]
4. طموحها إلى بناء نظرية لسانية عامة تدرس بموجبها اللغات البشرية كافة.
5. النظر إلى اللغة كلا موحدا، وتسير في الدراسة من الصوت لتنتهي بالدلالة مرورا بالبنى الصرفية النحوية.
6. إهمال الفوارق بين بدائي اللغات ومتحضرها.
7. دراسة اللغة دراسة حسية استقرائية وصفية وفق الواقع اللغوي المعيش.
8. الاعتماد على التقنيات من آلات وأجهزة حديثة في الدرس الصوتي.
9. استنباط القوانين الناظمة للظواهر اللغوية أو اللغات بالاتكاء على الملاحظة الإحصائية.[3]

فاللسانيات علم يدرس اللغة أو اللهجة دراسة موضوعية، غرضها الكشف عن خصائصها، وعن القوانين اللغوية التي تسير عليها ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والاشتقاقية، والكشف عن العلاقات التي تربط هذه الظواهر بعضها ببعض، وتربطها بالظواهر النفسية، وبالمجتمع والبيئة الجغرافية.

[1] مبادئ اللسانيات العامة: ص15، مرجع مذكور.

[2] المرجع نفسه: ص18.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المبحث الثاني: التداولية بين المفهوم والنشأة

المطلب الأول: تعريف التداولية.

المطلب الثاني: نشأة التداولية وتطورها.

المطلب الثالث: جذور التداولية في التراث العربي.

تعتبر التداولية من أبرز المباحث اللغوية التي اهتمت بدراسة اللغة في الاستعمال، بالتركيز على عناصر العملية التواصلية (المخاطِب، المخاطَب، السياق)، وسنتطرق في مبحثنا هذا إلى التعريف بهذا التيار الحديث، النشأة، وبيان جذورها في التراث العربي.

المطلب الأول: تعريف التداولية

1. لغـة

يرجع مصطلح التداولية في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (د و ل) وله معان مختلفة، لكنها لا تخرج عن معاني التحول والتبدل، جاء في لسان العرب "لابن منظور" (ت 711هـ):" تداولنا الأمر، أخذناه بالدّول وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر (...) ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة وتداولنا العمل والأمر بيننا، بمعنى تعاوزناه، فعمل هذا مرة وهذا مرة"[1].

وقد وردت في مادة (دَ وَ لَ) في مقاييس اللغة:" أدال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب، تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدَّولة والدُّولة لغتان، ويقال بل الدُّولة في المال، والدَّولة في الحرب، وإنما سميا بذلك من قياس الباب، لأنه أمر يتداولونه، فيتحول من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا"[2]، فمعنى التداول عند "ابن فارس" ينقسم إلى قسمين: الأول يدل على التحول والثاني يدل على الضعف والاسترخاء وكل هاته الدلالات توحي إلى التغير والتنقل.

وورد في معجم أساس البلاغة "للزمخشري" (ت 538هـ):" دول: دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليه (...) وأديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأديل المشركون على المسلمين يوم أحد (...) والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم والدَهر دول وعُقب ونُوب، وتداولوا الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما".[3]

فالملاحظ أن معاجم العربية لا تكاد تخرج دلالاتها للجذر (د و ل) عن المعاني: التحول والتبدل والانتقال، سواء من مكان إلى آخر أم من حال إلى أخرى، مما يقتضي وجود أكثر من طرف واحد يشترك في فعل التحول والتغير والتبدل والتناقل، وتلك حالة اللغة متحولة من حال لدى المتكلم إلى حال لدى السامع، ومتنقلة بين الناس، يتداولونها بينهم، ولذلك كان مصطلح التداولية أكثر ثبوتا بهذه الدلالة من المصطلحات الأخرى، فاللغة دائما في حالة تغير.

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ، 2005م، ج1 ص252 مادة (د و ل).

[2] ابن فارس: مقاييس اللغة، ص314، ج1، مادة (د و ل)، مصدر مذكور.

[3] عمر الزمخشري: أساس البلاغة، تح: مزيد نعيم وشوقي المعري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1 ص303 مادة (د و ل).

وأما مصطلح التداولية في أصله الأجنبي (Pragmatique) فإنه يعود إلى الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) المبنية على الجذر (Pragma)، ويعني العمل أو الفعل (Action)[1]، وتقلب المصطلح على مدلولات عدة، لينتقل استعماله إلى الميدان العلمي بداية من القرن 17، وصارت تدل على كل ماله علاقة بالفعل أو التحقق العلمي، وبعبارة أخرى يدل على كل ماله تطبيقات ذات ثمار علمية.

وهذا المعنى الذي قدم في قاموس القرن (Gentury Dictionary) 1909؛ حيث توصل ديوي إلى أن التداولية هي النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وموادها إنما تتخذ في حدود الاعتبارات العملية أو الفرضية فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الدقيقة، أو الاعتبارات الفكرية المجردة.[2]

بمعنى أن التداولية تطلق على مجموعة من المعارف والفلسفات التي ترى أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة في الحياة.

2. اصطلاحـا

يرجع أول استعمال لمصطلح التداولية إلى الفيلسوف "تشارلز موريس*" سنة 1938 حيث قدم لها تعريفا في سياق تحديده للإطار العام لعلم العلامات وذلك في مقال ركز فيه على مختلف التخصصات التي تعالج اللغة (التركيب، والدلالة، والتداولية) ليشير إلى أن "التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"[3]، وهذا التعريف يتعدى جانب اللسانيات لينتقل إلى غيره من الجوانب غير اللسانية.

ويرى "جورج يول*" " أن التداولية تختص بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم أو الكاتب، ويفسره المستمع أو القارئ، لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة"[4]، فالتداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم.

---

[1] نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي-المبادئ والإجراءات-، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص18.

[2] محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، ط2، 1984، ص41.

* تشارلز موريس Charles Morris (1903-1979)، من كبار علماء اللغة المجددين في مجال فلسفة اللغة، حوّل علم العلاقات إلى علم مستقل.

[3] فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص08، مرجع مذكور.

* جورج يول George Yule (1871-1951)، لغوي بريطاني، معروف بتأليف كتب تمهيدية في فروع مختلفة من اللغويات.

[4] جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط1، 1431هـ، 2004م، ص19.

ويرى أيضا أن ميدان الدراسة هذا يتضمن بالضرورة تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين وكيفية تأثير السياق فيما يقال. كما يتطلب أيضا التمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقا لهوية الذي يتكلمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أي ظروف [1]؛ فالتداولية هي دراسة المعنى السياقي.

كما يرى عبد الفتاح أحمد يوسف أن التداولية "علم يهتم بدراسة التواصل اللغوي داخل الخطابات والبحث في طبيعة العلاقة بين الأقوال الخطابية، والأفعال الاجتماعية، ومن ثم التعامل مع الخطاب الإبداعي بوصفه تعبيرا عن تواصل معرفي واجتماعي في سياق ثقافي"[2]، فهي ليست علما لغويا محضا، بل هي علم يركز على دراسة التواصل اللغوي ضمن مجال الاستعمال.

ويعرفها أحمد محمود نحلة بأنها "فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو هو دراسة معنى المتكلم، فمثلا إذا قال المعلم في القسم (الجَوُ بَارِدٌ جِدًا) قد يعني أغلقوا الباب والنوافذ، وليس من الضروري أن يقصد مجرد الإخبار فقط، فالمتكلم كثيرا ما يعني أكثر مما يقول".[3]

أما مسعود صحراوي فيقر بأن "التداولية ليست علما لغويا محضا ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة (التواصل اللغوي وتفسيره)" [4] فهو يرمي إلى الخروج والانتقال من المعنى اللغوي إلى معنى المتكلم قصد تفسير ظاهرة التواصل اللغوي.

ولعل التمعن في التعريفات السابقة يوصلنا إلى أن أوجز تعريف وأقربه للقبول هو دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما.

[1] ينظر: جورج يول: التداولية، ص19، مصدر مذكور.

[2] عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساقه الثقافية، دار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط1، 2010، ص34-35.

[3] محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، 2002، ص12-13.

[4] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص16، مرجع مذكور.

المطلب الثاني: نشأة التداولية وتطورها

ينسب أول استعمال لمصطلح التداولية (Pragmatique) للفيلسوف الأمريكي (تشارلز موريس) وذلك سنة 1938. وتمثل التداولية حسب رأيه إحدى نواحٍ ثلاثة يمكن معالجة اللغة من خلالها:

1. التركيب(La syntaxe): ويعنى بالعلاقات بين العلامات فيما بينها.
2. الدلالة(La sémantique): وهي تهتم بدراسة العلامات في علاقتها بالواقع، أو بعبارة أخرى دراسة علاقة العلامات بالأشياء والموجودات التي تدل عليها.
3. التداولية(Pragmatique): وهي تدرس علاقة العلامات بمستعمليها، بظروف استعمالها وبآثار هذا الاستعمال على البنى اللغوية.[1]

وتشكل التداولية درسا جديدا وغزيرا لما يمتلك من حدود واضحة، انبثقت من التفكير الفلسفي في اللغة وسرعان ما تجاوزه لعمل على صقل أدوات تحليله، وبخاصة التداولية اللسانية.

إن اللسانيات التداولية اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير بدأت على يد "سقراط" ثم تبعه "أرسطو" والرواقيون بعده، لكنها لم تظهر إلى الوجود باعتبارها نظرية للفلسفة إلا على يد "باركلي"، تغذيها طائفة من العلوم على رأسها: الفلسفة، واللسانيات والأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع.[2]

فالتداولية اللسانية اتجاه جديد في دراسة اللغة يبحث عن حل لعديد من المشاكل اللغوية التي أهملتها اللسانيات ولم تهتم بها نحو: الفونولوجيا والتركيب والدلالة، ولذلك يعترف كارناب "أن التداولية درس غزير وجديد، بل يذهب أكثر من هذا بقوله إنها قاعدة اللسانيات"[3]. كما أن اللسانيات التداولية تشكل محاولة جادة للإجابة عن جملة من الأسئلة تفرض نفسها على الباحث والبحث العلمي عامة، قد عجزت اللسانيات عن الإجابة عنها، متوسلة في سبيل ذلك عديدا من العلوم الإنسانية والاجتماعية وهي أسئلة من قبيل: (ماذا نصنع حين نتكلم؟) (ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟) (من يتكلم ومع من يتكلم؟) (من يتكلم ولأجل من؟) (ماذا علينا أن نعلم حتى يُرفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟) (كيف يمكننا قول شيء آخر غير الذي كنا نريد قوله؟) (هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟) (ماهي استعمالات اللغة؟)[4].

---

[1] محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص، ص44، مرجع مذكور.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] عبد الهادي بن ضافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص23.

[4] المقاربة التداولية: ص11، مرجع مذكور.

* جون أوستين John Austin (1911-1960)، فيلسوف لغة بريطاني، يعرف بأنه واضع نظرية أفعال الكلام.

ولم تصبح التداولية مجالا يعتد به في الدرس اللساني إلا في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن طورها فلاسفة اللغة المنتمين إلى جامعة أكسفورد "جون أوستين*"و"جون سيرل" وبول غرايس وهم من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية، في مقابل مدرسة اللغة الشكلية (الصورية) وكانوا يهدفون إلى إيجاد طريقة لتوصيل معنى اللغة الإنسانية من خلال إبلاغ مرسل الرسالة إلى مستقبل يفسرها، فكان عملهم من صميم البحث التداولي.[1]

وكانت بداية تطور اللسانيات التداولية بنظرية أفعال الكلام التي ظهرت مع "جون أوستين"، وتطورت على يد جون سيرل وبعض فلاسفة اللغة من بعده، لتظهر بعدها جملة من المفاهيم والنظريات التي تشكل مجتمعة ما يعرف باللسانيات التداولية (أفعال الكلام، والاستلزام التخاطبي، والإشاريات...).[2]

والحق أن "جون أوستين" حينما ألقى محاضرات "ويليام جيمس" عام 1955 لم يكن يهدف إلى وضع اختصاص جديد للسانيات أو فرع جديد لها، وإنما كان يرمي إلى وضع اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، غير أن تلك المحاضرات صارت فيما بعد تمهيدا للسانيات التداولية.

وانطلق "أوستين" من ملاحظة بسيطة مفادها أن كثيرا من الجمل التي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب "لا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره، فهي لا تقول شيئا عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، إنما تغيرها أو تسعى لتغييرها"[3]. فجملة نحو: (آمُرُكَ بِالصَمْت) لا تصف واقعا بل تسعى لتغيير حالة الضجيج إلى الصمت.

وبناء على هذه الملاحظات قسم "أوستين" الجمل إلى: جمل وصفية يمكن الحكم عليها بالصدق والكذب، وجمل إنشائية لا ينطبق عليها ذلك الحكم، وتقابل في الثقافة اللغوية العربية الجمل الخبرية والجمل الإنشائية، مثلما نجدها عند علماء النحو والبلاغة، وكذا علماء التفسير وأصول الفقه في أبحاثهم.

وتتفرد الجمل الإنشائية بخصائص لا توجد في الجمل الوصفية، نحو كونها "تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، وتتضمن فعلا من قبيل أمر، ووعد، وأقسم ويفيد معناه على وجه الدقة إنجاز عمل، وتسمى الأفعال أفعالا إنشائية"[4].

ولا يمكن الحكم على هذه الأفعال الإنشائية بمعيار الصدق والكذب، وإنما بمعيار التوفيق أو الاتفاق، فعندما تأمر الأم مثلا ابنها قائلة: (نَظِفْ أَسْنَانَك)، ويرد عليها (أَنَا لَا أَشْعُرُ بِالُنعَاس)، فالأم هنا لم تقل كلاما

[1] محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص9-10، مرجع مذكور.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] آن ريبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص30.

[4] المصدر نفسه: ص31.

صادقا أو كاذبا، بل قدمت أمرا لابنها وأمرها هنا أخفق لأن الابن لم يمتثل له، ولو قام بالفعل لقلنا أن أمر الأم كُلّل بالنجاح.

اكتشف "أوستين" فيما بعد أن المقابلة بين الجمل الوصفية والجمل الإنشائية ليست بالبساطة التي كان يعتقد، ذلك أن هناك جمل إنشائية لكنها لا تستند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، ولا تتضمن أي فعل إنشائي مثل: (رُفِعَت الجَلْسَة)[1]. وقد قادته هذه الملاحظات الأخيرة إلى وضع مفهوم جديد، مفاده أن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، وهو مفهوم الأعمال اللغوية، التي ميز فيها "أوستين" ثلاثة أنواع: العمل القولي، والعمل المتضمن في القول، وعمل التأثير بالقول.[2]

ففي المثال السابق يمثل التلفظ بالجملة (نَظِفْ أَسْنَانَك) النوع الأول أي العمل القولي، أما العمل المتضمن في القول فهو الفكرة التي تحملها الجملة، ووصلت للابن بمجرد سماع تلك الجملة، وأما عمل التأثير بالقول فنجده واضحا في رد الابن على أمه (لَا أَشْعُرُ بِالُنعَاس)، حيث تضمنت هذه الجملة إقناعا للوالدة بتأجيل ابنها غسل الأسنان لموعد النوم كما تحتوي على الفعلين (العملين) الأول و الثاني.[3]

وقد شكلت أفكار وملاحظات "أوستين" بداية موفقة لنظرية أفعال الكلام، أول نظرية تداولية لسانية، ثم سرعان ما فتئت تتطور شيئا فشيئا مع فلاسفة اللغة بعد "أوستين" خاصة تلميذه "جون سيرل"، لتظهر بعدها نظريات أخرى (القصدية، الملاءمة، الاستلزام التخاطبي، الحجاج...) شكلت مجتمعة ما يعرف باللسانيات التداولية.

[1] آن ريبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص31، مرجع مذكور.

[2] صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص205.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المطلب الثالث: جذورها في التراث العربي

إن دراسة عملية التواصل أو الاتصال قديما تعود جذورها إلى دراسات تنظيرية عند "الجاحظ" و"الجرجاني" وغيرهم، فقد ركز هؤلاء المنظرون على المرسل و المتلقي والرسالة وعملية التأثر والقصد ونوايا المتكلم والفائدة من الكلام والإفهام، فكلها تعد جواهر النظرية التداولية.

كما تعد الدراسات البلاغية "من الأعمال التي تطرقت إلى ما يقتضيه المنهج التداولي إذ يتضح ذلك في بعض الأعمال ومنها دراسات "الجرجاني" في (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، و"الجاحظ" في (البيان والتبيين)، و"الخفاجي" في (سر الفصاحة)"[1]، فالبحوث البلاغية أساس الدراسات التي تربط بين دراسة اللغة واستعمالها في السياق.

1. مظاهر التداولية عند الجاحظ (ت 255هـ)

وتسمى نظرية "الجاحظ" بنظرية التأثير والمقام والتي تعرف اليوم بالتداولية، وقد تجلت جذورها عند "الجاحظ" من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاثة وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التأثيرية التي تمثل عنصرا مهما في التداولية حيث يرى "الجاحظ" أنه يمكن إرجاع وظائف البيان إلى ثلاث وظائف أساسية:

أ. الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة حياد)، إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام.

ب. الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف) تقدم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

ج.الوظيفة الحجاجية (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطراب[2] فكل هذه الوظائف تكون أساس التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها مقاربة تولي اهتمامها بالتواصل بالدرجة الأولى، والإقناع والتأثير، وإيصال المعنى وتسدي الفائدة الكبرى للإرضاء والتفاعل والإبلاغ.

كما يرى "الجاحظ" أن "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[3]، ففائدة الكلام تكمن في طريقة إيصال المتكلم لفكرته وحسن استجابة المخاطب له، وهذا ما وجد في نص الجاحظ المتعلق بالفهم والإفهام والبيان و الإيضاح عن المعنى وهذا ما يحقق البعد التداولي، غير أنه أخرج التواصل من دائرته الضيقة التي تعتمد على المنطوق فجعل "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها

[1] عبد الهادي بن ضافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص22-23، مرجع مذكور.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجاحظ، مصر، ط4، 1975، ج1، ص31 وما بعدها.

[3] المصدر نفسه: ص76.

اللفظ ثم الإشارة، ثم النقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة"[1]، فالتواصل في رأي الجاحظ لا يقتصر على المنطوق وحده، بل الكتابة أيضا إذا كان المخاطب متعلما وهو الذي أطلق عليه (الخط) أو يكون بالإشارة والإماءة، وقد يكون (النصبة) وهي الناتجة عن التأمل والتفكير.

2. مظاهر التداولية عند ابن جني (ت 392هـ)

هناك الكثير من الظواهر و الموضوعات التداولية التي عالجها "ابن جني" في مؤلفاته، وخاصة في كتابه (الخصائص)، ومنها مسألة السياق أو المقام، والأفعال اللغوية، والاستلزام الحواري التخاطبي، والتواصل اللغوي وغير اللغوي وغيرها من الظواهر.

والاستلزام الحواري درسه العديد من اللغويين البلاغيين العرب القدماء منهم "ابن جني" الذي يقول في كتابه (الخصائص) في باب (إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول ما لم يدعو إلى الترك والتحول) "اعلم أنه ليس شيء يخرج من بابه إلى غيره إلا بأمر قد كان –وهو على بابه– ملاحظا له، وعلى صدد من الهجوم عليه، وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء، منها: يرى المسؤول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه، ومنها أن يتعرف حال المسؤول: هل هو عارف بما السائل عارف به؟ ومنها أن يري الحاضر غيره أنه بصورة السائل المسترشد، مما له في ذلك من الغرض، ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، حتى إذا حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقا، فأوضح بذلك عذرا، ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها، فلما كان السائل في جميع الأحوال قد يسأل عما هو عارفه أخذ بذلك طرفا من الإيجاب، لا السؤال عن مجهول الحال"[2].

3. مظاهر التداولية عند ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)

لقد تضمنت كتابات "ابن سنان" بعض مسائل التداولية من بينها فائدة الكلام فهو "يشترط في الكلام الصحيح الانتظام والفائدة، وإلا فلا يمكن عدّه كلاما، إلا إذا حقق الفائدة المرجوة منه، فهذا يعني أن الكلام عنده له وظيفة نفعية، كما تكلم عن المواضعة والقصد، إضافة إلى أن استعمال المتكلم له قصد معين"[3]، فالقصد يعد من عناصر العملية التواصلية الموجودة في التداولية.

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص76، مصدر مذكور.

[2] أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ-2003م، ج2، ص464-465.

[3] ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص33.

المبحث الثالث: التداولية (القضايا والمهام)

المطلب الأول: مفاهيم التداولية وقضاياها.

المطلب الثاني: مهام التداولية.

المطلب الأول: مفاهيم التداولية وقضاياها

لقد تشعبت موضوعات ومجالات التداولية واتسعت دائرتها وبيئة نشأتها مما جعل الإلمام بقضاياها أمرا مستعصيا على من يريد رسم حدود لها، نظرا لتعدد مشاربها ولكونها تسعى لأن تكون مندمجة في اللسانيات لا مكملة لها، ومن هذه القضايا ما يلي:

1. أفعال الكلام (Les actes de langage)

تعد أفعال الكلام نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب والأمر والوعد...) وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثم فهي أفعال تطمح إلى أن تكون أفعالا تأثيرية؛ أي أنها تطمح إلى أن تكون ذات تأثير في المخاطب اجتماعيا ومؤسساتيا، ومن ثم إنجاز شيء ما.[1] ويعد الفيلسوف "جون أوستين" رائد هذا الاعتقاد وهو الذي أعطى لائحة طويلة لهذه الأفعال، والتي يفهم منها بشكل جيد أنها تتعلق بمفهوم تجريدي. وقد توصل "أوستين" إلى أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد ولا يفصل بينهما إلا لغرض الدرس، وقسم الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أفعال فرعية وهي:

أ_ فعل القول (أو القول اللفظي): ويتمثل في ثلاثة مستويات للجملة وليس الكلم وهي: الصوتي والتركيبي والدلالي للجملة التي يعبر بها المتكلم عن قصده، أو القول المقيد عند علماء النحو، والبراغماتية اللسانية تهتم بالمعنى المستفاد من التركيب، وتستبعد المعنى العام المعجمي، وتجعل من المعنى السياقي هدفها الرئيسي.

ب_ الفعل المتضمن في القول أو الفعل الإيجازي، أو القوة الفاعلة المصاحبة للجملة: وهو الحدث الذي يقصده المتكلم بالجملة كالأمر والنصيحة، وهذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود من النظرية برمتها ويشمل الجانب التطبيقي والجانب التبليغي.

ج_ الفعل الناتج عن القول أو التأثير الذي يحدثه الفعل الإيجازي في المتلقي، ورد فعل المتلقي: كقبول الدعوة، وغياب السؤال، وامتثال الأمر، أو توليد فعل آخر مُوازٍ للقول.[2]

واستنادا إل مفهوم القوة الإيجازية ميز أوستين بين خمسة أنواع للأفعال:

- الأفعال الحكمية (الإقرارية): حكم، وعد، وصف.
- الأفعال التمرسية: إصدار قرار لصالح أو ضد، أمر، طلب...

[1] التداولية عند العلماء العرب: ص27-28، مرجع مذكور.

[2] محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) "دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ"، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013، ص99-100.

- الأفعال الوعدية أو التكليف: تلزم المتكلم: وعد، التزم بعقد، أقسم...
- الأفعال العرضية (التعبيرية):عرض مفاهيم منفصلة، أكد، أجاب، وهب...
- أفعال السلوكيات (الإخباريات): وهي ردود فعل اتجاه الآخرين مثل الاعتذار، الشكر، التهنئة...[1]

وقد أوضح هذه الفكرة عند "أوستين" تلميذه الفيلسوف "جون سيرل"، وشرحها أكثر بتقديمه شروط إنجاز كل فعل، إلى جانب بيانه شروط تحول فعل من حال إلى حال أخرى، وآليات ذلك، وتوضيح خطوات استنتاج الفعل المقصود[2]، وتوصل "سيرل" إلى أن المتكلم يقوم بأربعة أفعال حين ينطق بالجملة، وهي إنجاز فعل التلفظ (التلفظ بالكلمات)، وإنجاز فعل القضية أو الجملة، وإنجاز فعل قوة التلفظ، وأضاف إلى هذه المفاهيم الثلاثة المفهوم الذي قدمه "أوستين" (فعل أثر التلفظ)، وهو المفهوم الذي يتلازم مع مفهوم (فعل قوة التلفظ)، والذي يجسد النتائج والتأثيرات التي تحدثها الأفعال الإنجازية السابقة في وعي المتلقي ومعتقده، ويمكن إقناع المخاطب بالحجاج، ويمكن تخويفه أو تنبيهه بالإنذار، ويمكن أن يعمل شيء ما بالطلب، ويمكن التأثير فيه وإقناعه وتثقيفه بالإعلام.[3]

2. الملفوظية (L'énonciation)

هي ترجمة للمصطلح الفرنسي (Enonciation) الذي أشار إليه الألسني السويسري "شارل بالي*" في كتابه "اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية" وقد تبلورت هذه الفكرة على يد بنفنست في شرح ثنائيات دوسوسير اللغة والكلام التي عرفت احتجاجا من طرف اللسانيات الحديثة عموما، حيث انساق اللسانيون بداية من الستينات على إعادة تأويل هذه الثنائية، مؤكدين بأنه في الملفوظية لا يؤخذ كل شيء من الفرد، وبيّن "بنفنست*" أنه ثمة فرق عميق بين اللغة بوصفها نظاما من الأدلة، واللغة بوصفها ممارسة يضطلع بها الفرد، وهذا المستوى الأخير هو تحليل الخطاب في نظره خلافا لمذهب "دوسوسير".[4]

والملفوظية تقابل الملفوظ بالمعنى الأكثر شيوعا لهذه العبارة، مثلما تقابل صناعة الشيء الشيء المصنوع وهي تسخير فعل الاستخدام الفردي للسان، بينما الملفوظ يعني نتيجة هذا الفعل. فالملفوظية تتكون من جملة العوامل والأفعال التي تتسبب في إنتاج الملفوظ، بما في ذلك التواصل الذي يشكل حالة خاصة من حالات الملفوظية، ويرى "مانغونو" بأن التلفظ مباين للملفوظ كتباين الفعل عما يترتب عنه، ويطلق الملفوظ للدلالة

---

[1] خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، مكتبة الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص98.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] محمود عكاشة: النظرية البراجماتية، ص109، مرجع مذكور.

* شارل بالي Charles Bally (1865-1947)، لغوي سويسري، أحد تلامذة دوسوسير، قام بالتعاون مع زميليه سيشهاي بجمع محاضرات أستاذه و نشرها عام 1916.

* إميل بنفنست Emile Benvensite (1902-1976)، لساني سميائي فرنسي، عرف بأعماله المنصبة على اللغات الهندوأوروبية.

[4] في اللسانيات التداولية: ص102، مرجع مذكور.

على نتاج فعل التلفظ، وأن هذا اللفظ متعدد المعاني ولا يكتسي دلالة بعينها إلا في صلب تقابلات شتى، ولكن في منظور تحليل الخطاب لابد من الابتعاد عن بعض الافتراضات المسبقة التي قد نلصقها بهذا التحديد[1]:

- لا يجب تصور التلفظ كامتلاك الفرد لنظام اللغة: فالفرد لا يرقى للتلفظ إلا من خلال القيود المختلفة لأنواع الخطابات.
- لا يقوم التلفظ على المتلفظ وحده: أي أن التفاعل هو الذي يأتي في المقام الأول.
- إن الفرد الذي يتكلم ليس هو بالضرورة الهيئة التي تتكفل بالتلفظ، وهذا ما يدعو إلى تحديد التلفظ بمعزل عن صاحب الكلام.

ويميز بين نشأة الملفوظية ونشأة التداولية فيقول أن النظريات الملفوظية هي عمل اللسانيين الأوروبيين بطرق الخطابات وكيفية توصيلها، بينما التداولية فقد تطورت حول إشكالية أفعال الكلام.[2]

3. الحجاج (L'argumentation)

يعد الحجاج من أهم المحاور التداولية، حيث حظي بجهود مستفيضة من عدد لا بأس به من المناطقة واللغويين والفلاسفة المختصين بالتحليل الخطابي، كون الخطاب مجموعة من العبارات والصيغ الحجاجية الموجهة نحو المتلقي قصد إقناعه بمعلومات معينة.

ويعد الحجاج "فعالية تداولية جدلية، ويرتبط أشد الارتباط بعناصر المقام، فكلما وقفنا على لفظ الحجاج تسارعت إلى أذهاننا دلالة على معنى التفاعل، فهو أصل في كل تفاعل بين طرفي الخطاب"[3]، فالمحاجج له القدرة على التأثير في المتلقي وإقناعه.

ويعرف الحجاج على أنه "كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الإعتراض عليها"[4]، ويتبين لنا من هذا القول أن الحجاج خاصية لها علاقة بالتخاطب ويهدف إلى التأثير في السامع، فيكون بذلك ناجحا فعالا.

والحجاج "الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع"[5]، ويمكن القول أن الحجاج في اللغة مجموعة من القواعد التي ينبغي على المتكلم إتباعها لتحقيق الهدف الرئيسي له وهو

---

[1] خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص103، مرجع مذكور.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] بلقاسم دفة: استراتيجيات الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد10، 2014، ص496.

[4] طه عبد الرحمان: اللسان والميزات، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص126.

[5] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ص456، مرجع مذكور.

الإقناع والتأثير، فلا يمكن للمرسل أن يرسل خطابه دون أن يكون له غرض من ذلك قصد الاستمالة من خلال الحجاج اللغوي وغير اللغوي كالإماءات والإشارات.

4. متضمنات القول (Les Implicites)

وهي مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره، ومن أهمها:

أ_ الافتراض المسبق: في كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية في تحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة، ففي الملفوظ (1) مثلا: (أغلق النافذة)، وفي الملفوظ (2): (لا تغلق النافذة)، في الملفوظين كليهما خلفية (افتراض مسبق) مضمونها أن النافذة مفتوحة. ويرى التداوليون أن الافتراض المسبق ذو أهمية قصوى في عملية التبليغ والتواصل.[1]

ب_ الأقوال المضمرة: هي النمط الثاني من متضمنات القول، وترتبط بوضعية الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية، ومثاله قول قائل: (إن السماء ممطرة) فإن السامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أن القائل أراد أن يدعوه إلى:

- المكوث في بيته.
- أو الإسراع إلى عمله حتى لا يفوته الموعد.
- أو الانتظار و التريث حتى يتوقف المطر.

وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها الخطاب. والفرق بينه وبين الافتراض المسبق أن الأول وليد السياق الكلامي والثاني وليد ملابسات الخطاب.[2]

كما أن متضمنات القول تتنوع حسب دلالة الأفعال اللغوية، وتنوعها ليس محكوما بشكلها اللغوي، بل محكوما بقصد المرسل بالدرجة الأولى، من خلال الموائمة بين الشكل اللغوي المناسب وبين العناصر السياقية. ولا يمكن أن يكون المعنى الحرفي للغة هو معنى الخطاب الواحد، وهذا أحد دوافع توسع الدراسات التداولية، فلم تقف عند المعنى الحرفي للخطاب، أو عند إنجاز الفعل بشكله اللغوي المباشر. كما ورد عند "أوستين" و"سيرل" في جانب من نظريتهما، بل اهتمت الدراسة بالمعنى التداولي، وكيفية التعبير عنه بالمعنى اللغوي غير المباشر، وهذا ما يمثل إحدى استراتيجيات الخطاب لتعبير المرسل عن قصده، ويتحدد هذا القصد

[1] التداولية عند العلماء العرب: ص31-32، مرجع مذكور.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

من خلال السياق بعناصره الكثيرة، فهو ركيزة في الخطاب لتجسيد معنى المرسل، بدلا من التقيد بالمعنى اللغوي البحت، رغم أنه يتطابق معه في بعض السياقات.[1]

5. الاستلزام الحواري (Conversation implicature)

لاحظ بعض فلاسفة اللغة واللسانيين التداوليين وخصوصا الفيلسوف "غرايس*" أن جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير محتواها العضوي ويتضح ذلك من خلال الحوار الآتي بين الأستاذين "أ" و"ب":[2]

الأستاذ"أ": هل الطالب "ج" مستعد لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة؟

الأستاذ"ب": إن الطالب "ج" لاعب كرة ممتاز.

لاحظ الفيلسوف "غرايس" أننا إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ"ب" وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في الوقت نفسه، أحدهما حرفي وآخر مستلزم؛ فمعناها الحرفي أن الطالب "ج" من لاعبي الكرة الممتازين ومعناها الاستلزامي أن الطالب المذكور ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة[3]. ولهذا عمد "غرايس" إلى إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه للسامع على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، ونتيجة لهذا كان يفرق بين المعنى الصريح ومعنى ما تحمله الجملة من معنى متضمن، فنشأت عنده فكرة الاستلزام.

ورأى "غرايس" أن الاستلزام نوعان:

أ_ الاستلزام العرفي

قائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت السياقات وتغيرت التراكيب ومن ذلك (لكن) فهذا يستلزم أن يكون ما بعدها مخالفا لما يتوقعه السامع مثل: (زيد غني لكنه بخيل).[4]

---

[1] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ص78، مرجع مذكور.

* بول غرايسPaul Grice (1913-1988)، فيلسوف بريطاني في علم اللغة، عُرِفَ بشكل واسع في علم اللغويات بفضل نظريته التضمين.

[2] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ص38، مرجع مذكور.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ص121، مرجع مذكور.

ب_ الاستلزام الحواري

فهو متغير دائما بتغير السياقات التي يرد فيها فحين يقال:(كم الساعة؟) فإن مقصد المتكلم يختلف حسب السياق الذي وردت فيه الجملة فقد يكون سؤالا وقد يكون توبيخا.[1]

لذلك وضع "غرايس" مفهوم (مبدأ التعاون) بين المتكلم والمخاطب وهو مبدأ حواري عام فيقول:" ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه الحوار وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار".[2]

ويفترض "غرايس" أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون (مبدأ التعاون)، فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتسيير تأويل أقواله.

وقد شرح "غرايس" هذا المبدأ مقترحا قواعد متفرعة منه من المفترض أن يحترمها ويستغلها المتخاطبون وهي:[3]

أ_ قاعدة الكلم: التي يفترض أن تتضمن مساهمة المتكلم بمعلومات تعادل ما هو ضروري في المقام ولا يزيد عليه.

ب_ قاعدة النوع: التي تفترض نزاهة القائل الذي ينبغي ألا يكذب وأن يملك الحجج الكافية لإثبات ما يثبته.

ج_ قاعدة العلاقة أو المناسبة: التي تفترض أن يكون حديثا داخل الموضوع ذا علاقة بأقوال القائل السابقة وأقوال الآخرين.

د_قاعدة الكيف: والتي تعني أن نعبر بوضوح وبلا لبس قدر الإمكان ونقدم المعلومات بترتيب مفهوم، مثلا: الترتيب الزمني عندما نروي سلسلة من الأحداث.[4]

ويمكن ربط فكرة الاستلزام بتقسيم الأصوليين لدلالة المنطوق بحسب تعلقها بما تدل عليه أو من حيث شمولها واستيعابها لما تدل عليه إلى ثلاثة أقسام وهي:

أ_ دلالة المطابقة: أي دلالة اللفظ على تمام معناه كدلالة لفظ الصلاة على سائر أفعاله وأقوالها من قيام وركوع وسجود وقراءة، وكذا دلالة لفظ الصوم، فإن تصور معناه أو إدراكه يشمل جميع أجزائه من امتناع عن الأكل والشرب وسائر المفطرات.[5]

---

[1] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ص121، مرجع مذكور.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] التداولية اليوم علم جديد في التواصل: ص55-56، مرجع مذكور.

[5] عبد القادر شاكر عبيد: شذرات في اختصار مباحث علم الدلالات، alridhawan71@yaho.com ،د ط، د س، ص12.

ب_ دلالة التضمن: أي دلالة اللفظ على جزء من معناه، كدلالة الصلاة على الركوع، ودلالة الصوم على الامتناع عن الأكل.[1]

ج_ دلالة الالتزام: أي دلالة اللفظ على لازم معناه الخارج عنه، كدلالة الصلاة على الطهارة، ودلالة الصوم على النهار.[2]

والفرق بين التضمن والالتزام أن دلالة التضمن داخلة في المسمى ودلالة الالتزام خارجة عنه.

وسبب هذا الحصر بثلاثة أنواع فقط هو أن دلالة اللفظ على معناه إما تشمل المعنى كاملا وهي دلالة المطابقة، وإما لا تشمل تمام المعنى وهذا القسم إما يدل على جزء من المعنى وهو دلالة التضمن، أو يدل على معنى ملازم له خارج عنه لا يمكن تصور تمام المعنى إلا به وهو دلالة الالتزام.

وقد قسم الأصوليون دلالة الالتزام إلى ثلاثة أقسام:

أ_ دلالة الاقتضاء: وهي توقف صحة أو صدق معنى اللفظ من ناحية العقل أو الشرع على تقدير لفظ مضمر، أي أن المعنى المستفاد من المنطوق لا يصح إلا بتقدير لفظ يستقيم به الكلام، ومن أمثلة دلالة الاقتضاء عقلا: (طرت إلى مكة لأداء العمرة)، فالعقل لا يصحح هذا الكلام إلا بتقدير كلمة (بالطائرة) فيكون المراد (طرت بالطائرة إلى مكة). ومثال الاقتضاء شرعا قوله صلى الله عليه وسلم:« لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، فحتى يصح الكلام شرعا يقدر المحذوف نحو: لا تصح صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.[3]

ب_ دلالة الإشارة: هي دلالة اللفظ على معنى غير مقصود –قصدا أصليا– من سياق الكلام، وإنما يفهمه السامع من الكلام عرضا، مثل: (أن يسأل رجل صاحبه فيقول: أين كنت فجر هذا اليوم؟ فيقول كنت في المسجد، فالجواب سيق أصالة لبيان أين كان في وقت الفجر، وبدلالة الإشارة يفهم السائل أن صاحبه ممن يصلي الفجر في المسجد.[4]

ج_ دلالة الإيماء: هي دلالة النص على معنى يدرك من وجود وصف لو لم يكن للتحليل لكان ذكر ذلك الوصف عبثا بغير فائدة وهذه الدلالة من مسالك العلة في القياس. ومن أمثلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:«ليس لقاتل ميراث»، فالحديث تضمن حكما وهو منع القاتل من أن يأخذ شيئا من ميراث من قتله،

[1] عبد القادر شاكر عبيد: شذرات في اختصار مباحث علم الدلالات، alridhawan71@yaho.com، ص13، مرجع مذكور.
[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3] المرجع نفسه، ص14.
[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وذكر وصف القاتل هو الذي يدل على دلالة الإيماء أو تنبيه على أن السبب أو علة حرمانه من الميراث هو قتله لمورثه.[1]

التداولية لم تعد ذلك الموضوع الجديد الذي لم تتضح معالمه وحدوده ودراسته ومواضيعه، فقد تقدمت التداولية من خلال أعمال مدرسة أكسفورد، فالاجتهادات التي قدمها "أوستين" و"غرايس" وغيرهم ساهمت في تقدم التداولية وتحديد موضوعات الدراسة فيها، فهي تدرس اللغة في سياقات الاستعمال المختلفة، ومن القضايا التي تناقشها وتأخذها بالتحليل: نظرية أفعال الكلام، الملفوظية، الحجاج، متضمنات القول، الاستلزام الحواري... وغيرها.

المطلب الثاني: مهام التداولية

تتلخص مهام التداولية في:

- دراسة "استعمال اللغة"، التي لا تدرس "البنية اللغوية" ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها "كلاما محددا" صادرا من "متكلم محدد" وموجها إلى "مخاطب محدد" بـ"لفظ محدد" في "مقام تواصلي محدد" لتحقيق "غرض تواصلي محدد".
- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.
- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر.
- شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية الصرف في معالجة الملفوظات.[2]
- ويرى "فان دايك*" أن من مهام التداولية دراسة شروط نجاح العبارات، وصياغة شروط ملائمة الفعل لإنجاز العبارة حيث يقول:" إن أحد مهام التداولية أن تتيح صياغة شروط إنجاح إنجاز العبارة، وبيان أي جهة يمكن أن يكون هذا الإنجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل الإنجاز، الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر، وبهذا الاعتبار فإن المهمة الثانية تقوم في صياغة مبادئ تتضمن اتجاهات مجاري فعل الكلام المتداخل الإنجاز الذي ينبغي أن يستوفي في إنجاز العبارة حتى تصبح ناجحة والمهمة الثالثة، أنه لما كانت معطيات التجربة متاحة بأوسع ما تكون في صورة العبارة فقط، فيجب أن يكون من الواضح في التداولية،

[1] شذرات في اختصار مباحث علم الدلالات: ص14، مرجع مذكور.

[2] التداولية عند العلماء العرب: ص26-27، مرجع مذكور.

* فان دايك Van Dyck (1818-1885)، أديب ومدرس أمريكي، ساهم بشكل فعال في النهضة العربية كما ساهم في تأسيس الجامعة الأمريكية في بيروت.

كيف تترابط شروط نجاح العبارة كفعل إنجازي، وكمبادئ فعل مشترك الإنجاز التواصلي مع بنية الخطاب وتأويله".[1]

فالتداولية تتيح للمتكلم وتضمن له نجاح إنجاز العبارة اللغوية، وتضمن النجاح والفعالية والممارسة لكل استخدام لغوي، وفق ما يقتضيه ويتطلبه كل موقف تواصلي.

[1] فان دايك: النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، د س، ص256.

المبحث الرابع: اللسانيات التداولية

المطلب الأول: تعريف اللسانيات التداولية.

المطلب الثاني: علاقة التداولية باللسانيات.

المطلب الثالث: أهمية اللسانيات التداولية.

المطلب الأول: تعريف اللسانيات التداولية

من خلال التعريفات السابقة لكل من اللسانيات والتداولية يمكن القول أن اللسانيات التداولية تعد أحدث الاتجاهات اللغوية التي ظهرت على ساحة الدرس اللساني الحديث والمعاصر، فهي اليوم تشكل قطبا للعلوم اللسانية إذِ انصبت ضمنها اهتمامات ودراسات الباحثين واللسانيين خصوصا بعد وصول النظريات السابقة للتحليل اللساني إلى طريق مسدود، حيث كانت اللسانيات مقتصرة على الجانبين البنيوي والتوليدي، فعلقوا على التداولية آمالا كبيرة طامحين أن يفكوا بها ألغازهم وأسئلتهم التي لم يجدوا لها تفسيرا في دراساتهم السابقة. وهكذا بدأ الاهتمام بما يسمى (لسانيات الاستعمال)، فدرست اللغة أثناء استعمالها في المقامات والسياقات المختلفة وبحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين، إذ سعت التداولية إلى معالجة الكثير من ظواهر اللغة وحاولت حل مشاكل التواصل ومعوقاته خصوصا أنها أخذت المعارف من علوم مختلفة، فهي بهذا جديرة أن تكون أشمل وأعمق في البحث والتفكير من كثير من العلوم التي سبقتها، وبقيت عاجزة عن تلبية مطالب الباحثين فيها والإجابة عن أسئلتهم.[1]

وعلى اعتبار أن تلاقح المعارف والحضارات أمر مسلم به، فمن الطبيعي أن تكون عملية التأثير والتأثر موجودة بين الدراسات اللغوية وبين الظواهر الحضارية كلها.

استطاعت التداولية الإفادة من ميادين مختلفة كما أخذت واحتوت ما سبقها من الدراسات مركزة على ما أغفل من الجوانب المعنوية فأصبح مجالها.

[1] خديجة بوخشة: محاضرات في اللسانيات التداولية Elarning-univ-jijel .dz.

المطلب الثاني: علاقة التداولية باللسانيات

تعرف التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعني به تحديد اللسانيات، فالعلاقة بينهما ليست علاقة بسيطة، فإذا كانت التداولية هي "دراسة استعمال اللغة بدلا من دراسة اللغة في اللسانيات، كما هو معلوم، تتفرع للدراسة الثانية؛ أي لدراسة المستويات الصوتية والتركيبية وربما الدلالية، فقد تحولت مع البنيويين إلى علم تجريدي مغلق ذي إجراءات داخلية خالصة يؤمن بكيانية البنية اللغوية في مستواها الصوري المجرد، في حين أن دراسة اللغة لا تنحصر ضمن الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الضيق وإنما تتجاوزها إلى أحوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة حسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين"[1]، ومنه تحولت اللغة إلى جانب للممارسة والفعل.

فمزج التداولية باللسانية أدى إلى توسيع مجال اللسانيات، وتعتبر التداولية مكملة لها، فما هي علاقة التداولية بمختلف فروع اللسانيات؟.

1. علاقة التداولية باللسانيات البنيوية

يشترك الدارسون في قولهم أن التداولية تهتم بالكلام الذي هو غير اللسان، وحسب "فرديناند دوسوسير" اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة. فاللسانيات البنيوية تهتم أساسا بدراسة نظام اللغة دون الاعتداد بنوايا المتكلم وسياق التلفظ، مما جعل البعض يعد التداولية "لسانيات الكلام" مقابل "لسانيات اللغة"، وهذا قد يحصر حدود التداولية ويقوض كثيرا من امتداداتها، فضلا على أن الكلام غير معزول عن اللغة إلا افتراضا فهو مظهر من مظاهر تحققها ودراسته هي دراسة الواقع الفعلي للغة، والتداخل الواضح بينهما، وهناك من يرى أنها تتموقع خارج النظرية اللسانية بناء على ما قدمه تشومسكي في مفهوم الكفاءة والأداء مثل "فرانسوا لاترافاس" والذي اعترف بصعوبة التمييز بينهما.[2]

ونجد هذه الحيرة عند "آن ريبول" و"جاك موشلار" في قولهما:" حين نخبر زملاءنا اللسانيين بأننا تداوليون فعادة ما نثير لديهم صمتا دالا! فبأي شيء يمكن للتداولي إذن أن يعني؟ أهو لساني أم فيلسوف أم عالم نفس"[3]. وسبب هذه الأسئلة في نظرهما يرجع إلى ما ذكرناه من تركيز النظريات اللسانية على دراسة النظام (الصوت- الصرف- التركيب- الدلالة) وعدم إعطاء الاهتمام والعناية لاستعمال النظام اللغوي، أما السبب الثاني فهو عجز اللسانين عن تحديد ميدان التداولية في مقابل فروع اللسانيات الأخرى.

---

[1] التداولية عند العلماء العرب: ص28، مرجع مذكور.

[2] في اللسانيات التداولية: ص123، مرجع مذكور.

[3] آن ريبول، جاك موشلار: القاموس الموسعي للتداولية، تر: مجموعة من الباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط2، 2010، ص23.

"ويمكن تلخيص مهمة اللسانيات في دراسة طرق التنظيم بين مجموع الأصوات ومجموع المعاني، بين الشكل والمعنى، ولكن البعد التداولي في دراسة اللغة يتجاوز منوال الشكل والمعنى إلى مجالات أخرى لا يحكمها هذا المنوال نحو الملفوظية والحجاج ومظاهر الاستدلال في اللغة والتضمين والاقتضاء وغيرها، حيث تحكم هذه الموضوعات حالات خاصة ومقتضيات تجعلها متجاوزة لوصف علاقة شكلها بمعناها".[1]

ويرى مسعود صحراوي أن التداولية ليست مكونا من مكونات اللسانيات البنيوية لأن التداولية ليست هي المرحلة الأخيرة للتحليل اللساني، وليست نظرية للخطاب، كما أن اللسانيات نظرية للجملة، فتقابلها أو تكملها، والتداولية ليست سلة مهملات اللسانيات، بل هي أداة لتبسيط اللسانيات، فالظواهر التي تدرسها التداولية ليست مهملة ولا متروكة بالضرورة، فهي تقوم بإزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات.[2]

لنأخذ المثال[3]: (لقد زادوا في قيمة الضرائب) ملفوظ لا تقدم فيه اللسانيات البنيوية أي قاعدة تفسر الضمير الذي سند إليه الفعل (زاد) وتعين المرجع الذي يحال عليه في الواقع الخارجي عن اللغة، أما في التداولية فتوجد عدة آليات في هذا الشأن وهذا ما يجعل لها بعض المميزات عن اللسانيات البنيوية كالاتصال المباشر ومباشرة العالم الخارجي، ومن القواعد التي تمدنا بها العالم الخارجي أن ليس لأحد الحق في زيادة الضرائب إلا السلطات القانونية المخولة بذلك.

2. علاقة التداولية باللسانيات النفسية

ترتبط التداولية مع اللسانيات النفسية "في الاهتمام بقدرات المشاركين التي لها أثر كبير في أدائهم مثل الانتباه والذاكرة والشخصية"[4]، وهذا الاهتمام يكون من ناحية الأداء أو من ناحية السمات الأخرى التي ينفرد بها الفرد (العناية بقدرات المشاركين)، فالتداولية تعتني بدراسة العلاقة بين المتكلم والمتلقي وتستند في ذلك إلى علم اللغة النفسي.

[1] في اللسانيات التداولية: ص126، مرجع مذكور.
[2] التداولية عند العلماء العرب: ص27-28، مرجع مذكور.
[3] المرجع نفسه: ص29.
[4] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ص11، مرجع مذكور.

3. علاقة التداولية باللسانيات الاجتماعية

تكمن علاقة التداولية باللسانيات الاجتماعية في اشتراكهما معا في "تبين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث والموضوع الذي يدور حوله الكلام، ومرتبة كل من المتكلم والسامع وجنسه وأثر السياق غير اللغوي في اختبار السمات اللغوية وتنوعها"[1]، فالجانب الاجتماعي يجمع بين اللغة والاستعمال والمقام والأداء، بينما تهتم التداولية بالجانب الإنجازي للكلام، معتمدة في ذلك على اعتبار المتكلم والسياق.

4. علاقة التداولية باللسانيات التعليمية

للسانيات التداولية الأثر الأكبر في صناعة التعليم (سواء اللغة الأم أو الأجنبية) (Didactique) التي أخذت تعنى بالمتعلم ومقام التبليغ، أي تزويد المتعلمين بالأدوات التي تمكنهم من التحرك بواسطة الكلام تحركا يلائم المقام والمقاصد المراد تحقيقها، فأن يعرب المرء عن اعترافه بالجميل لطرف ما معناه إجراء فرز ذي سلسلة من التأديات والانتباه إلى ردود فعل الطرف المقابل، إن مفهوم التبليغ هو الذي يجب أن يكون الأسبق والمحرك وليس اللغة، فهي وسيلة واحدة ضمن الوسائل الأخرى وليست غاية. إن نتائج اللسانيات التداولية قد سمحت بمراجعة جذرية لمناهج التعليم والتدرج والاختبارات ومراقبة المعلومات ونمذجة التمارين، وإن جميع المؤلفين يؤكدون ويلحون على ثلاث أبعاد أساسية لتحديد التعليم، البعد المعرفي، والبعد العاطفي، والبعد التداولي. فالبعد المعرفي هو توفير معلومات عن المجال الذي تستخدم فيه اللغة، والبعد العاطفي هو الترغيب والتشجيع بقصد حمل المرء على التخاطب دون عوائق نفسية. والبعد التداولي هو تكوين الاستعدادات اللغوية وتطويرها قصد التبليغ الأمثل والحصول على فعالية اجتماعية أكبر.[2]

5. علاقة التداولية باللسانيات النصية

يؤكد جل علماء النص على ضرورة أن نأخذ بعين الاعتبار البعد التداولي للنص، وذلك انطلاقا من أن لكل نص رسالة معينة يريد الكاتب إيصالها للمتلقي، وأن ذلك يتم في ظروف معينة، كما يرون أيضا أن أحد معايير الحكم على النص بالقبول هي مدى ملائمته للسياق الذي يرد فيه، ويرى "فان دايك" "ضرورة أن يتسع مجال النحو ليشمل الأبعاد التداولية للنص. هناك بعض الحدود اللغوية التي تتطلب معلومات سياقية أثناء التأويل مثل: (هنا، الآن، أنت، هذا، ذلك)، من أجل تأويل الخطاب، وهكذا أصبح اللغويون ينظرون إلى المقامية كأحد أهم العناصر التي تقوم عليها النصية"[3].

[1] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ص10-11، مرجع مذكور.

[2] ينظر: في اللسانيات التداولية: ص133، مرجع مذكور.

[3] مدخل إلى علم النص: ص97، مرجع مذكور.

إن علماء النص مثل "فان دايك" و"روبرت دي بوغراند*" يؤكدان على ضرورة أن يدرس النص مقترنا بسياقه، وهذا ما يلتقيان فيه مع رائدي تحليل الخطاب "هاليداي*" و"رقية حسن" واللذين يريان بأن النص لا يعرف بأنه تَوالٍ أو تسلسل عدد من الجمل (وهذا ليس حتميا)، ولا أيضا بأنه وحدة لغوية تتجاوز مستوى الجملة، وإنما يعرف بأنه وحدة لغوية في الاستعمال، وهو ما يقتضي في نظرهما أن نأخذ بعين الاعتبار ارتباط الخطاب بسياقه (مقام التلفظ، مرجعية الخطاب...).[1]

"والنص من وجهة نظر تداولية، هو كل ثقافي يحيل على معطيات ذات أصول متنوعة ليست لسانية فحسب، لهذا السبب يعرف مثله مثل الخطاب، حسب الرؤية التداولية بأنه: استعمال ملفوظات في تركيباتها لانجاز أفعال اجتماعية، ويؤدي الخطاب ثلاثة وظائف هي:

- وظيفة قضوية (ما تقوله الكلمات).
- وظيفة إنجازية (ما تنجزه بالكلمات من اتهام، أوامر، أو طلب معلومة)، وتنشأ علاقة بين المتفاعلين بواسطة هذا الفعل الانجازي.
- وظيفة تأثيرية (الهدف المستوفى: أي التأثير في المخاطب أو البحث عن التأثير فيه)".[2]

ومن هنا يمكننا أن نخلص إلى أن اللسانيات تهتم بدراسة طرق التنظيم بين مجموع الأصوات ومجموع المعاني بين الشكل وبين المعنى بتعبير أوجز، في حين أن البعد التداولي في دراسة اللغة يتجاوز منوال الشكل إلى مجالات أخرى لا يحكمها هذا المنوال نحو الملفوظية والحجاج والتضمين والاقتضاء وغيرها من الظواهر الأخرى.

* روبرت دي بوغراند Robert de Beaugrande (1946-2008)، عالم لغوي أمريكي ومحلل للخطاب، أحد مطوري كلية فيينا لتدريس اللغويات.

* هاليدي Micheal Halliday (1925-2018)، لغوي إنجليزي ساهم في مجال اللسانيات النظامية.

[1] مدخل إلى علم النص: ص75، مرجع مذكور.

[2] ألفا أوصمان باري: مقال تحليل الخطاب أسسه النظرية، تر: لحسن بوتكلاي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 5، 2014، ص136.

المطلب الثالث: أهمية اللسانيات التداولية

تتجلى أهمية اللسانيات التداولية في دمجها المستويات اللغوية المختلفة في منظومة واحدة، ودراسة اللغة على أساسها، أثناء الاتصال اللساني (دراسة اللغة قيد الاستعمال)، فتجعل المتلفظ للخطاب (المرسل) يرتبط بالمقام، فيتنبأ بما يستلزمه الموقف، ليراعيه أثناء انجاز خطابه، وبذلك يغدو معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها الخطاب في سياق التلفظ.[1]

وهذا ما جعل المتلفظ بالخطاب هو المتحكم في المعنى لا اللغة نفسها، وبذلك يستطيع ضمان حصول عملية الفهم والإفهام، حيث يوظف مستويات اللغة بما يستجيب لقصده، متكئا في ذلك على السياق، بعده مؤثرا مهما في نظام الخطاب المنجز، وهذا ما أهملته الدراسات البنيوية الصورية.

فاللسانيات التداولية تهتم بدراسة المعنى اللغوي أثناء الاستعمال، ولذلك سميت بـ(لسانيات الاستعمال اللغوي)، وهذا ما جعلها أكثر دقة وضبطا في معالجتها للغة، وبالتالي فإن قدرة التداولية على التدخل في إثراء معاني الكلام والذهاب في تأويل المسكوت عنه، هي من الغنى والسعة، ما يثري الخطاب بتمكينه من إثمار قراءات لم تكن دلالة اللغة البسيطة تحتملها ولا قادرة على تمثيلها.[2]

كما تتبدى أهمية اللسانيات التداولية في محاولتها للإجابة عن الأسئلة العديدة التي مثلت إشكاليات جوهرية أثناء معالجة النصوص المختلفة

ثم إن اتساع مجال البحث في التداولية، نتيجة تعدد المشارب التي تمتح منها، جعلها درسا لغويا غزيرا وحيويا، يمد الدراسات اللغوية والمعرفية بعدد من الأفكار والمفاهيم الجديدة، التي يستضيء بها الباحثون في دراساتهم ويصلون من خلالها إلى نتائج قيمة ما كانت لتبرز إلا في ضوء اللسانيات التداولية.

فالتداولية إذن "مشروع شاسع في اللسانيات النصية تهتم بالخطاب ومناحي النصية فيه نحو المحادثة، المحاججة، التضمين، ولدراسة التواصل بشكل عام بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد، إلى ما يمكن أن تنشئه من تأثيرات في السامع وعناصر السياق".[3]

كما تظهر أهمية اللسانيات التداولية في تجاوز النظر اللغوي فيها مستوى الجملة إلى مستوى النص، والمعطيات السياقية والمقامية التي جعلته يرد بتلك الصورة، ضمانا للفهم والإفهام.

وبهذا الطرح الذي تقدمه اللسانيات التداولية، يظهر أنها قد تكون مدخلا مناسبا لدراسة التراث البلاغي العربي، لما توفره من آليات في الكشف عن المعنى ومكنوناته.

---

[1] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ص22-23، مرجع مذكور.

[2] في اللسانيات التداولية: ص135، مرجع مذكور.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

خلاصة

- يعود الفضل في نشأة التداولية كتيار جديد إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس.
- ارتبطت التعريفات المقدمة للتداولية بفكرة الاستعمال أو الإنجاز اللساني.
- تداخلت التداولية وامتزجت بمختلف العلوم المعرفية، من بينها اللسانيات (علم اللسان).
- تعد اللسانيات عالما يمتلك كل الفحوصات المعرفية التي تميزه عما سواه في العلوم الإنسانية الأخرى، حيث تقوم على الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري، من خلال ألسنة خاصة بكل مجتمع.
- من خلال العلاقة القائمة بين التداولية واللسانيات ظهر ما يعرف بـ"اللسانيات التداولية" التي تعد أساسا ترتكز عليه الكثير من النظريات والأبحاث اللسانية في دراستها، لعمق تحليلها ودقة نتائجها، حيث تدرس المعنى لا في ثبوته وإنما في سياقات استعماله.

الفصل الثاني:
قضايا اللسانيات التداولية في كتاب
"دلائل الإعجاز"
لعبد القاهر الجرجاني

تمهيـــد

تثير الأبحاث التداولية اهتمام الكثير من الباحثين في مختلف المجالات لما تطرحه من إمكانيات لحل مشاكلهم اللغوية العالقة، وهي فضاء مفتوح على مختلف المعارف الإنسانية، فهي تأخذ من علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الاتصال،.. وقد اتخذت لنفسها موقعا في الأبحاث اللسانية بعد أن كانت في نظر الكثير سلة مهملات.

ولعل المزية التي تحملها التداولية هي إعطاء أهمية كبرى لأقطاب العملية التواصلية اللسانية، فاهتمت بالمتكلم ومقاصده بوصفه عنصرا فعالا في عملية التواصل، ومنحت أهمية للظروف السياقية بوصفها عناصر مساعدة في تأدية هذه المقاصد، وعولت كثيرا على استغلال المستمع للظروف السياقية في سبيل الوصول إلى المعنى الذي قصده المتكلم.

وقد بلغ كل هذا اهتمام "الجرجاني" في كتابه (دلائل الإعجاز)، بحيث أصبح كتابه قبلة يقصدها باحثوا الدراسات اللسانية والبلاغية قديما وحديثا، وكانت نظرية النظم أساسا جوهريا في تحليل القول، حيث ارتكزت على البعدين السياقي والتداولي انطلاقا من دراسة تركيبية محكومة بقواعد النحو الداخلي للغة، ومتفتحة على الفصاحة والمجاز، وهذه الازدواجية في النظم هي التي جعلت الدراسات النحوية تخرج من نطاق المقولات والنماذج وقواعد الإعراب داخل الجملة، إلى المعاني السياقية التي تنتجها الأشكال التركيبية، اعتمادا على الآليات والمكونات اللسانية كالتقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف من جهة، والمقتضيات من جهة أخرى.

وقد سلك "الجرجاني" في تحليله للقول مسلكا إبداعيا حيث أعطى المقولات النحوية أبعادا تداولية ومعاني جديدة، ووظائف تأثيرية غير تلك التي كررها وأطنب فيها النحاة القدامى والجدد على حد سواء.

المبحث الأول: عناصر العملية التخاطبية عند الجرجاني

المطلب الأول: المتكلم.

المطلب الثاني: السامع.

المطلب الثالث: الكلام.

إن مفاد العملية التخاطبية (التواصلية) هو تبادل الآراء والمعلومات بطرق مختلفة (لفظية وغير لفظية)، حيث يجري من خلالها التفاعل بين أطرافها الأساسية والمتمثلة في : المتكلم، السامع، والخطاب، لتحقيق الهدف المرجو.

المطلب الأول : المتكلم

يعد المتكلم العنصر الأساسي في العملية التخاطبية، وهو المسؤول عن إنشاء الكلام وإرساله للمتلقي (السامع) قصد تبليغه رسالته والمقصود منها وكذلك بهدف التأثير فيه. وعلى المتكلم استعمال كفاءاته ومهاراته اللغوية من أجل صياغة الرسالة على أحسن وجه، حيث يقول "عبد القاهر الجرجاني" في هذا الخصوص:" واعلم أنَّ ممّا هو أصلٌ في أن يَدِقَّ النظرُ ويَغْمُض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتّحد أجزاء الكلامِ ويدخلَ بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأولٍ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني الذي يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم، وفي حال ما يبصر مكانٌ ثالثٌ ورابعٌ يضعهما بعد الأولين. وليس لما شأنه أن يجئ على هذا الوصف حدٌّ يحصره، وقانون يحيط به، فإنه يجيءُ على وجوه شتى وأنحاء مختلفة"[1]. فالمتكلم هو المتحكم في اللغة يسخر مهاراته من أجل الابداع في الكلام, حيث يقوم بشحن كلامه بدلالات مختلفة تأول عند السامع.

ويبرز اهتمام "الجرجاني" بالمتكلم من خلال الألقاب التي أطلقها عليه كالشاعر، والقائل، والمؤلف، والناظم... ويعود اهتمام "عبد القاهر" بالمتكلم إلى أصله الأشعري الذي يعطي أهمية كبيرة للمتكلم، كونه ينتج كلاما نفسيا داخليا بينه وبين نفسه قبل التلفظ به وقبل النطق بالكلمات وإرسالها للسامع، وقد اشترط فيه "الجرجاني" أن يكون فصيحا فقال:"الفصاحة فيما نحن فيه، عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة. وإذ كان كذلك، فينبغي لنا أن نَنْظُر إلى المتكلم، هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئا ليس هو له في اللغة، حتى يُجعل ذلك من صنيعِهِ مزية يُعبَّر عنها بالفصاحة؟ وإذ نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يضع باللفظ شيئا أصلا، ولا يحدث فيه وصفا."[2]

---

* توجد دراسة للباحثة ثقبايت حامدة بعنوان قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة والخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012م. شملت هذه الدراسة بعض العناصر المذكورة في بحثنا تحت عناوين مختلفة وبطريقة أكثر تفصيلا، وتمثلت في عناصر المبحث الأول والثالث، حيث جاء المبحث الأول بعنوان: الإسناد وعناصر التخاطب عند الجرجاني تحدثت فيه عن: المتكلم والمعنى النفسي، المخاطب وفعل التدبر، الكلام بوصفه ملفوظا والكلام بوصفه تلفظا. أما المبحث الثالث فقد تناولته تحت عنوان: الإقتضاء في المقولات البلاغية والفعل الكلامي عند الجرجاني تحدثت فيه عن التقديم والتأخر، الفصل والوصل، والحذف.

[1] دلائل الإعجاز: ص 93،مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه:ص403.

تحدث "عبد القاهر" في مواضيع كثيرة عن أهمية المتكلم ومن ذلك قوله :" وإذ قد عرفت هذا في ‹‹الكناية››، ‹‹فالاستعارة›› في هذه القضية. وذاك أن موضوعها على أنك تُثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ. بيان هذا، أنا نعلم أنك لا تقول: (رَأَيْتُ أَسَدًا)، إلا وغرضك أن نثبت للرجل أنه مساو للأسد في شجاعته وجُرأته، وشدة بطشه وإقدامه، وفي أن الذُّعْرَ لا يُخامره، والخوف لا يعرض له. ثم تعلم أن السامع إذا عقل هذا المعنى، لم يعقله من لفظ (أَسَدٌ)، ولكنه يعقله من معناه، وهو أنه يعلم أنه لا معنى لجعله (أَسَدًا)، مع العلم بأنه (رَجلٌ)، إلا أنك أردت أنه بلغ من شدّة مُشابهته للأسد ومُساواته إيّاه، مبلغا يُتَوَهَّم معه أنه أسد بالحقيقة "[1].

يمكن القول أن دور المتكلم ينحصر في التعبير عن المعاني التي تخطر في نفسه، والتفنن في صياغتها على أحسن وجه.

المطلب الثاني: السامع

إن للسامع مكانة هامة في العملية التخاطبية، لكونه مكونا رئيسيا من مكونات العملية التواصلية، حيث يمثل الطرف الثاني في عملية التخاطب الذي ينشئ المتكلم خطابه من أجله ويوجهه إليه. ولقد حظي السامع باهتمام "الجرجاني" حيث تحدث عنه وأكد على أهمية المعرفة عنده فقال:" واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجدُ لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذّوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأنّ لما يُومئُ إليه من الحسن واللُّطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمُّل الكلام، فيجد الأريحيَّة تارة، ويَعْرَى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبتَهُ عَجِب، وإذا نبَّهْتَهُ لموضع المزية انتبه".[2]

إن كفاءة المخاطَب لا تقل عن كفاءة المتكلم، فالمعرفة التي يمتلكها السامع تسمح له بالتفاعل مع الخطاب وتأويله لفهم المعنى المقصود.

ومن مظاهر عناية "الجرجاني" بالمخاطَب قوله:" وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتُعمِل روّيتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه".[3] أي أن المتلقي يستعين بفكره ويعمل رؤيته ويراجع عقله لفهم المعنى، ففي هذا إشارة إلى المعرفة لدى المبدع الذي يحكم فكره ومعارفه من أجل الارتقاء بنظمه وإبداعاته.

إن غاية المتكلم أولاً هي أن يصل موضوعه إلى ذهن المتلقي، فيقع الفهم، فمدار الخطاب على الفهم والإفهام، وذلك من أجل حصول التأثير ونجاح العملية التواصلية، وفي هذه الحالة لابد للمتكلم أن يراعي حال

[1] دلائل الإعجاز: ص431_432، مصدر مذكور.
[2] المصدر نفسه: ص291.
[3] المصدر نفسه: ص64.

السامع فمدار الأمر متعلق بالفهم يقول "الجرجاني":" واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذّوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجّبته عجب، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه. فأما من كان الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء، وكان لا يتفقد من أمر (النظم) إلا الصحة/المطلقة، وإلا إعرابا ظاهرا، فما أقل ما يجدي الكلام معه"[1]، ويقول أيضا:" واعلم أنه ليس إذا لم تُمكِن معرفة الكل، وَجَب تَركُ النَّظر في الكل. وأن تعرف العلَّة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قلّ فتجعله شاهدا فيما لم تَعْرِف، أحرى من أن تَسُدَّ باب المعرفة على نفسك، وتأخذها عن الفهم والتفهُّم، وتعودها الكسل والهُوَيْنَ"[2]، فالسامع عليه أن يكون على استعداد من أجل التواصل مع المتكلم، وذلك بعدم وقوفه على ظاهر الكلام و محاولته لفهم المعنى المتضمن و القيام بعمليات التأويل.

فالمخاطَب إذا يمثل طرفاً فاعلاً في عملية التواصل مع المتكلم، فالمتكلم يصوغ خطابه في ضوء قابلية المخاطَب على التقبل والرغبة في الاستماع، بغية تحقيق هدفه الأساسي من عملية التواصل.

المطلب الثالث : الكلام

حدد "الجرجاني" ماهية الكلام بقوله:" والكَلِم ثلاث: اسم وفعل، وحرف. وللتعليق فيما بينهما طرق معلومة، وهو لا يَعْدُو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما(...) والكلام لا يكون من جزء واحد، وأنه لابد من مُسنَد و مُسندٍ إليه، وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة، (كإنَّ) وأخواتها، ألا ترى أنك إذا قلت: (كأنَّ)، يقتضي مَشبّها ومشبها به؟ كقولك: (كأنّ زيدا الأسد). وكذلك إذا قلت (لو) و(لولا)، وجدتهما يقتضيان جملتين، تكون الثانية جوابا للأولى"[3]. فالكلام موضوع يضم بعضه إلى بعض حتى يكون له معنى ودلالة، وهو قول مفيد صادر عن قصد المتكلم.

وقد تحدث "الجرجاني" عن واضع الكلام مشبها إياه بمن "يأخذ قطعا من الذهب إلى الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة"[4]. وقد مثل لذلك معلقا على بيت لبشار بن برد[5]: [الطويل]

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْع فَوْقَ رُؤُوسِنَا وأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

[1] دلائل الإعجاز: ص291، مصدر مذكور.
[2] المصدر نفسه: ص292.
[3] المصدر نفسه:ص04_07.
[4] المصدر نفسه:ص412_413.
[5] المصدر نفسه:ص411.

بقوله:" إذا تأملته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم، ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصانع حين يأخذ كسِوار من الذهب فيذيبها ثم يصبها في قالب، ويخرجها لك سوارا أو خلخالا. وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض، كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار. وذلك أنه لم يرد أن يشبه (النَّقْع) بالليل على حدة، و(الأسْيَافَ) بالكواكب على حدة، ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تَنْكَدِرُ الكواكب وتتهاوى فيه. فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد، والبيت من أوله إلى آخره كلام واحد."[1] فإن الترابط بين أجزاء الكلام يجعل منه نظما لارتباطه بالمعنى قبل اللفظ.

[1] دلائل الإعجاز: ص414، مصدر مذكور.

المبحث الثاني: الأفعال الكلامية عند الجرجاني

المطلب الأول: الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة.

المطلب الثاني: الأفعال المتضمنة في القول.

تعتبر أفعال الكلام من أهم المفاهيم التي تناولتها الدراسات التداولية، حيث كان لهذه النظرية الأثر البالغ في البحث اللساني عموما والتداولي خصوصا، وتقوم على مبدأ أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتبليغ والتواصل، بل هي أداة لتأثير المتكلم في المتلقي.

المطلب الأول: الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة

1. الأفعال الكلامية المباشرة

عرف "عبد القاهر" الأفعال المباشرة بأنها:" ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إن قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: (خَرَجَ زَيْدٌ) وبالانطلاق عن عمرو فقلت: (عُمَرُ مُنْطَلِقٌ)".[1]

ثم قال مجردا إياها من المزية:" وإذا كان بينًا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقه، وأنه الصواب، إلى فكر وروية، فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر"[2]، فهذا النوع من الأفعال لا يزيد في الدلالة عن المعنى الحرفي الذي تمنحه اللغة.

2. الأفعال الكلامية غير المباشرة

هي الأفعال التي تدل على معنى لا يقصده المتكلم، يقول "الجرجاني":" وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر"[3]، وجعل لها نوعين:

- النوع الأول: لا يستلزمه الحوار.
- النوع الثاني: يستلزمه الحوار.

أ_ النوع الأول: الذي لا يستلزمه الحوار

يتمثل في خروج الكلام عن المعنى الحرفي حيث لا يمكن معرفة المعنى المقصود إلا من خلال وجود قرائن دالة عليه، يقول "الجرجاني في ذلك:"فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحدا واحدا، وتعرف محصُولَهَا وحَقَائِقَهَا، وأن تنظر أولا إلى (الكناية) وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومَحْصُولَ أَمْرِهَا أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم:(هُوَ كَثِيرُ رَمَادِ القِدْرِ) وعرفت منهم أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى

[1] دلائل الإعجاز: ص262، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص286.

[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

نفسك، فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أن تنصب له القدور الكثيرة، ويطبخ فيه للقرى والضيافة، وذلك لأنه إذا أكثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة، وهكذا السبيل في كل ما كان كناية".[1]

ويقول أيضا:" وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على (الكناية) و(الاستعارة) و(التمثيل). أو لا ترى أنك إذا قلت (هُوَ كَثِيرُ رَمَادِ القَدْرِ)، أو قلت (طَوِيلُ النَجَادِ)، أو قلت في المرأة (نَوْمِ الضُحَى) فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعنى من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك، كمعرفتك من (كَثِير الرَمَادِ /القَدْرِ) أنه مِضْياف، ومن (طَوِيلُ النَجَادِ) أنه طويل القامة، ومن (نَؤُومُ الضُحَى) في المرأة أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها...وكذا إذا قال: (رَأَيْتُ أَسَدًا)، ودلَّكَ الحال أنه لم يرد السبع، علمت أنه أراد التشبيه، إلا أنه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لا يتميز عن الأسد في شجاعته. وكذلك تعلم من قوله: (بَلَغَنِي أَنَّكَ تُقَدِمُ رِجْلًا وَتُؤَخِرُ أُخْرَى)، أنه أراد التردد في أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه... وإذا عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول (المعنى)، و(معنى المعنى)، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير وساطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفيض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر".[2]

إن الفرق بين (المعْنَى) و(مَعْنَى المعْنَى) عند "الجرجاني " هو الفرق بين المعنى المراد في اللفظ _طبقا لما تواضع عليه اللغويون_ وبين المعنى الذي قصده المتكلم والذي يفهمه السامع من خلال تأويله للخطاب.

ب_ النوع الثاني: ما يستلزمه الحوار

قيل بأن هذا النوع يردُّ فيه السامع على المتكلم بما لا يصح أن يكون ردا ، ولا يمكن للمتكلم إدراك ذلك إلا بأنواع الاستدلال.[3]

ونجد مثال ذلك في قول "الجرجاني": "قوله تعالى:« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ » ق/37، فأما تفسير من يفسره على أنه بمعنى: (مَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ)، فإنه إنما يصح على أن يكون قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة، فأما أن يؤخذ به على هذا الظاهر حتى كان (القَلْبِ) اسم (العَقْلِ)، كما يتوهمه الحشو ومن لا يعرف مخارج الكلام فمحال باطل، لأنه لا يؤدي إلى إبطال الغرض من الآية، وإلى تحريف الكلام عن

[1] دلائل الإعجاز: ص431، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص263-264.

[3] ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ص116، مرجع مذكور.

صورته، وإزالة المعنى عن جهته. وذلك أن المراد به الحث على النظر، والتقريع على تركه، وذم من يخل به ويغفل عنه، ولا يحمل ذلك إلا بالطريق الذي قدمته، وإلا بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر، كأنه ليس بذي قلب، كما يُجْعل كأنه جماد، وكأنه ميت ولا يشعر ولا يحس. وليس سبيل من فسر (القَلْبِ) ههنا على (العَقْلِ) إلا سبيل من فسر عليه (العَيْنِ) و(السَمْعِ) في قول الناس (هَذَا بَيْنَ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَيْنٌ وَلِمَنْ كَانَ لَهُ سَمْعٌ)، وفسر (العُمَى) و(الصُمَمْ) و(المَوْتَ) في صفة من يوصف بالجهالة، على مجرد الجهل، وأجرى جميع ذلك على الظاهر، فاعرفه".[1] فالمعنى الظاهر ليس هو دوما المعنى المراد تبليغه، فقد يكون المعنى المقصود خفيا يُتوصل إليه من خلال الاستدلال.

المطلب الثاني: الأفعال المتضمنة في القول

إن فعل المتكلم يعرف من جهة المعنى وليس من جهة اللفظ، وهذا ما أشار إليه "عبد القاهر" في حديثه عن المعاني النفسية.

1. الخبـر

الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض[2]، ومعاني الكلام كلها لا تتصور إلا فيما بين شيئين والأصل الأول هو الخبر[3].

وقد ربط "الجرجاني" الأسلوب الخبري بفعلي الإثبات والنفي، لأن الإثبات هو المعنى الذي يقتضي مثبتا ومثبتا له، وكذلك حال النفي لأنه يقتضي منفيا ومنفيا عنه فالإثبات والنفي هما المعنيان الأساسيان اللذان تتمحور عليهما سائر معاني النحو، وهما المولدان الأساسيان للفائدة في البنية التركيبية الدلالية المجردة، وذلك باعتبارهما يمثلان حكم المتكلم ويجسدان اعتقاده.[4]

فالجرجاني جعل النفي شكلا من الإثبات، مادام أنه إثبات ينشئه المتكلم إنشاء ويكون صادرا عن اعتقاده، لهذا يكون عمل المتكلم منطلقا من الإثبات كما يلي[5]:

– في حالة الإثبات: يكون هناك إثبات وجود شيء معين من خلال التلفظ بالقول وإنجاز غرض كلامي.

[1] دلائل الإعجاز: ص304-305، مصدر مذكور.
[2] ينظر: المصدر نفسه: ص543.
[3] ينظر: المصدر نفسه: ص541.
[4] ينظر: المصدر نفسه: ص542.
[5] ينظر: المصدر نفسه:ص126_127.

– في حالة النفي: يكون هناك إثبات عدم وجود ذلك الشيء المنفي، وبالتالي فهو إنجاز لغرض كلامي معين يرتبط بسياقات إثبات فعل النفي.

ومن أمثلة "الجرجاني" حول النفي و الإثبات قوله:" إذا قلت: (مَا فَعَلْتُ) كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول، وإذا قلت: (مَا أَنَا فَعَلْتُ) كنت نفيت عنك فعلا يثبت أنه مفعول، وتفسير ذلك أنك إذا قلت (مَا قُلْتُ هَذَا) كنت نفيت أن تكون قد قلت ذاك، وكنت نوظرت في شيء أنه لم يثبت أنه مفعول؟... إذا قلت: (مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا)، كنت نفيت عنك ضربه، ولم يجب أن يكون قد ضرب، بل يجوز أن يكون ضربه غيرك، وأن لا يكون قد ضرب أصلا، وإذا قلت: (مَا أَنَا ضَرَبَ زَيْدًا)، لم تقله إلا وزيد مضروب، وكان القصد أن تنفي أن تكون أنت الضارب".[1] فالنفي والإثبات أفعال كلامية منبثقة عن الخبر عند "عبد القاهر".

2.الاستخبـــار

الحديث عن الاستخبار هو حديث عن الاستفهام قال "الجرجاني":" ومما يعلم به ضرورة أنه لا يكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم، أنك تقول: (أَقُلْتَ شِعْرًا قَط؟)، (أَرَأَيْتَ يَوْمًا إِنْسَانًا؟)، فيكون الكلام مستقيما، ولو قلت (أَأَنْتَ قُلْتَ شِعْرًا قَط؟) (أَأَنْتَ رَأَيْتَ إِنْسَانًا؟) أخلت، وذلك لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا، لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص نحو أن تقول: (مَنْ قَالَ هَذَا الشِعْرَ؟) (مَنْ بَنَى هَذِهِ الدَارَ؟)"[2]، فالهمزة يختلف الغرض الذي تستفهم عنه بحسب طريقة النظم المرتبط بقصد المتكلم.

3.الإنكار

إن الاستفهام يفسر بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى أنه لينتبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي الجواب.[3] والاستفهام من الآليات التي توجه السامع نحوه للإجابة عليه.

و من الأمثلة التي اوردها "عبد القاهر" في كتابه بيت شعري للشاعر عمارة بن عقيل: [الطويل]

أَتَتْرُكُ إِنْ قُلْتَ دَرَاهِمُ خَالِد زِيَارَتَهُ؟ إِنِي إِذَنْ لَلَئِيمٌ

وعلق عليه بقوله : "وجملة الأمر أنك تنحو بالإنكار نحو الفعل؛ فإن بدت بالاسم قلت: (أَأَنْتَ فَعَلْتَ؟) أو قلت: (أَهُوَ يَفْعَلُ؟) كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور وأبيت أن يكون بموضوع أن يجيء منه الفعل وممن يجيء منه وأن يكون بتلك المثابة"[4].

---

[1] دلائل الإعجاز: ص124، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص111-112.

[3] ينظر :المصدر نفسه: ص117.

[4] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

4.الأمـــر

الأمر هو ما دل على الزمان الآتي كاِفعل وليفعل[1]، ومما يدل على حديث "الجرجاني" عن فعل الأمر هو توظيفه للفعل (اِعْلَم) في قوله مثلا :" اِعلم أنه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللفظ كداء يسري في العروق ويفسد مزاج البدن وجب أن يتوخى دائبا فيهم ما يتوخى الطبيب في الناقة"[2].

5.النهـــي

يهدف النهي إلى التأثير في السامع وحثه على ترك فعل ما، والأداة الإنجازية للنهي هي (لَا) الجازمة فقط، وقد يُولِدُ النهي أفعالا كلامية متضمنة في القول ويكون ذلك باختلاف مقاصد الكلام، فمثلا قوله تعالى:« لَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى» طه/ 81، فالفعل المتضمن في القول هنا هو التهديد ويمكن أن يخرج إلى أفعال متضمنة أخرى يفرضها السياق.[3]

[1] ينظر: دلائل الإعجاز: ص93، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3] ينظر: حليمة بوالريش: التأصيل لأفعال الكلام في التراث العربي القديم، مجلة الأندلس،المغرب، العدد25 ،2018، ص02.

المبحث الثالث: الأغراض البلاغية والفعل الكلامي عند الجرجاني

المطلب الأول: التقديم والتأخير.

المطلب الثاني: الحذف.

المطلب الثالث: الفصل والوصل.

تقوم نظرية النظم على عدة أركان من بينها: التقديم والتأخير، والحذف، والفصل والوصل، وقد رّتب الإمام "عبد القاهر الجرجاني" هذه الفصول من حيث الأولوية والأهمية ليدلّل على أنه كما كان ترتيب الكلام عنده في أيّ إبداع بحسب الأهمية، فإن ترتيب هذه الأبواب يدل على منهجية واضحة قد وضعها في كتابه، وفيما يأتي وقفة مع بعض هذه الأركان.

المطلب الأول: التقديم والتأخير

يمثل التقديم والتأخير في بناء الجملة ركيزة أساسية في بلاغتها وتحقيق مراداتها، وإصابة غرض المتكلم لتحقيق التواصل بينه وبين السامع.

وقد أدرك "عبد القاهر" تلك الوظيفة التي يؤديها التقديم والتأخير في الكلام بقوله:"هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[1]؛ أي تقديم ما له أهمية أكبر على ما له أهمية أقل.

والتقديم حسب "الجرجاني" له وجهان، يقول في ذلك:" واعلم أن تقديم الشيء على وجهين:

– تقديم يقال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك (مُنْطَلَقٍ زَيْدَ) و(ضَرَبَ عُمَرًا زَيْدً)...

– وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له، فتقدمّ تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا".[2]

تتضح رؤية "الجرجاني" لآلية التقديم والتأخير وكيفية تواجده في القول أنها رؤية تواصلية مرتبطة بالقصد، ذلك أن تقديم لفظ على آخر يكون بمراعاة معاني النحو أولا والمتمثلة في التعليق على مستوى البنية اللسانية، لينطلق منها المتكلم ويبني أغراضه بحسب السياق التخاطبي وما يستلزمه المقام، ويكون هذا المعنى المراد متعلقا بالدلالة الثانية وهي دلالة المعنى الظاهر على معنى آخر على سبيل الاستدلال.[3]

ومن أمثلة "الجرجاني" عن التقديم والتأخير قوله:"(قَتَلَ الخارجيَّ زيدٌ) يكون المخاطب على شغف لمعرفة خبر مقتل الخارجي وليست الفائدة في معرفة القاتل وإنما في معرفة المقتول، وذلك بالنظر إلى السياق، والسياق

[1] دلائل الإعجاز: ص106، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص106-107.

[3] ينظر: استراتيجيات الخطاب: ص201، مرجع مذكور.

هنا يمثله مكانة (الخارجي) عند الناس ونفورهم منه نظرا لسوء سيرته، لهذا كان الأولى قوله"(قَتَلَ الخَارِجيَّ زيدٌ) ولا يقول (قَتَلَ زَيْدٌ الخارجيَّ)، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له (زَيْدٌ) جدوى وفائدة، فيعينهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد، وأنهم قد كُفوا شره وتخلصوا منه"[1]، ففي قوله (قَتَلَ الخارجيَّ زيدٌ) قدم المفعول على الفاعل للدلالة على أن الغرض هو معرفة المقتول لا القاتل.

وقد تحدث "الجرجاني" عن همزة الاستفهام وربطها بالتقديم والتأخير، فيقول:" ومن أبين شيء في ذلك (الاستفهام بالهمزة) فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت (أَفَعَلْتَ؟) فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلت: (أَأَنْتَ فَعَلْتَ؟) فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه"[2]، ويقول:" (أَبَنَيْتَ الدَارَ التِي كُنتَ عَلَى أَنْ تَبْنِيَهَا؟)، (أَفَرَغْتَ مِنَ الكِتَابِ الذِي كُنْتَ تَكْتُبُهُ؟)، تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، مُجَوِّزٌ أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن. وتقول (أَأَنْتَ بَنَيْتَ هَذِهِ الدَارَ؟)، (أَأَنْتَ قُلْتَ هَذَا الشِعْرَ؟)، (أَأَنْتَ كَتَبْتَ هَذَا الكِتَابَ؟) فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان. كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مَبْنِيَةً، والشعر مَقُولا، والكِتابَ مَكْتُوبًا، وإنما شككت في الفعل ما هو؟".[3]

إن التقديم والتأخير في الخبر المثبت قسمان حسب "الجرجاني" إذ يقول:" فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره، ثم بنيت الفعل عليه فقلت: (زَيْدٌ قَدْ فَعَل)، (أَنَا فَعَلْتُ)، و(أَنْتَ فَعَلْتَ). اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل إلى أن المعنى ينقسم إلى قسمين"،[4] والقصد هنا متجه إلى الفاعل، والمعنى إما أن يكون الفعل فعلا وتريد أن تحقق السامع أنه قد فعل، وتمنعه من الشك، فأنت بذلك تبدأ بذكره لكي تبعده من الشبهة وتمنعه من الإنكار، أو من أن يظن بك الغلط.

ومن الأمثلة التي حللها "عبد القاهر" في هذا الباب:" ومثاله قولك (هُوَ يُعطِي الجَزِيل) و(هُوَ يُحِبُ الثنَاء)لا تريد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غيره، ولا أن تعرِّض بإنسان وتحطه عنه، وتجعله لا يعطي كما يعطى، ولا يَرغَبُ كما يرغب، ولكنك تريد أن تحقق عن السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه، وأن تمكن في نفسه"[5]، فليس المقصود من العبارتين (هُوَ يُعطِي الجَزِيل) و(هُوَ يُحِبُ الثنَاء) أنه لا

[1] دلائل الإعجاز: ص108، مصدر مذكور.
[2] المصدر نفسه، ص111.
[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
[4] المصدر نفسه: ص128.
[5] المصدر نفسه: ص129.

يوجد أحد غيره يعطي الجزيل ويحب الثناء، بل المقصود أنه يحب ذلك ويسعى لفعله، فالمعنى الذي يقصده المتكلم لا يفهمه السامع مباشرة و إنما يفهمه من خلال تأويله وتفسيره للكلام.

لا شك إذن في أن للتقديم والتأخير دوراً جوهريا في تحقيق بلاغة الجملة، لما يضيفه على الأسلوب من إعادة بناء الكلام طبقا لما يحتاجه المقام، بحيث تتعلق هذه الفائدة بفنية المتكلم، والسعي نحو الغاية المرجوة من الكلام، وهي الإيصال والإفهام، وتلك غاية التخاطب.

المطلب الثاني: الحذف

الحذف هو إسقاط جزء من الكلام لا يختل المعنى أو الفهم بسقوطه، بحيث تكون هناك قرينة تدل عليه، ويكون الحذف من جهة المتكلم والتنبه له من جهة السامع. يقول "عبد القاهر الجرجاني" في باب الحذف:" هو باب دقيق المسلك، لطي فالمأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصّمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِن".[1] فالحذف حسب "الجرجاني" لا يتم فقط كمقولة نحوية، بل يأتي لدواعي قولية معينة (بلاغية) وهو ما يقابله في الدرس التداولي ما يعرف بمضمرات القول، ومما مثل له "الجرجاني" للحذف هو حذف المبتدأ أو حذف المفعول به.

يحذف المبتدأ عند وجود قرينة تدل عليه ويكتفى بخبره، ومن النصوص التي حللها "الجرجاني" بشأن حذف المبتدأ أو إضماره قول الشاعر بكر بن النّطاح:[2] [الكامل]

العَيْنُ تُبْدِى الحُبَّ وَالبُغْضَا وَتُظْهِرُ الإِبْرَام وَالنّقْضَا

دُرَّةُ، مَا أَنْصَفَتِنِى فِي الهَوَى وَلَا رَحِمْتِ الجَسَدَ المُنْضَى

غَضْبَى، وَلَا واللهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعَمُ البَارِدَ أَوْ تَرْضَى

وقد علق على هذه الأبيات قائلا:"بقوله في جارية كان يحبها، وسُعي به إلى أهلها فمنعوها منه، والمقصود قوله (غَضَبَى)، وذلك أن التقدير (هِي غَضَبَى) أو (غَضَبَى هِي) لا محالة، ألا ترى أنك ترى النفس كيف تتفادى من إظهار هذا المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره؟ وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رُمت التكلم به؟".[3]

[1] دلائل الإعجاز: ص146، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص152.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أما عن حذف المفعول به فإذا كان الغرض من الكلام إثبات الفعل والفاعل فحذف المفعول أولى من ذكره، ومثال ذلك ما أورده "الجرجاني" من الشواهد القرآنية "قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ ﴾ الزمر/09، مفسرا إياها بقوله: هل يستوي من له علم ومن لا علم له؟ من غير أن يقصد النص على معلوم"،[1] حذف المفعول به لإثبات معنى الفعل، فالغرض من التساؤل الموجود في الآية القرآنية هو معرفة منزلة العلماء من منزلة الجهلاء.

وضرب مثالا آخرا من قول البحتري:[2] [الخفيف]

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

وعلق عليه قائلا:" المعنى لا محالة: أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره وأوصافه، ولكنك تعلم على ذلك أنه كأنه يسرق علم ذلك من نفسه ويدفع صورته على وهمه، ليحصل له معنى شريف وغرض خاص. وذلك أنه يمدح خليفة وهو المعتز، ويعرض بخليفة وهو المستعين، فأراد أن يقول: إن محاسن المعتز وفضائله، المحاسن والفضائل يكفي فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع حتى يعلم أنه المستحق للخلافة، والفرد الوحيد الذي ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها، فأنت ترى حساده وليس شيء أشجى لهم وأغيظ، من علمهم بأن ههنا مبصرا يرى وسامعا يعي، حتى ليتمنون أن لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها، وأذن يعي معها، كي يخفى مكان استحقاقه لشرف الإمامة، فيجدوا بذلك سبيلا إلى منازعته إياها".[3]

فمن خلال هذا يمكن القول أن للسياق دور مهم في فهم الخطاب وتأويله بطريقة مناسبة، ومعرفة المحذوف من الكلام والمضمر منه.

تحدث "الجرجاني" عن نوع من الحذف سماه "الإضمار على شريطة التفسير"[4]، موضحا إياه بقوله: "وذلك مثل قوله (أَكْرَمَنِي وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ الله) أردت: (أَكْرَمَنِي عَبْدُ الله وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ الله)، ثم تركت ذكره في الأول استغناء بذكره في الثاني"[5]، وقد أورد مثالا آخرا من شعر البحتري:[6] [الكامل]

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا، وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

وعلق عليه قائلا:" الأصل لا محالة: لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة، وهو على ما ذكرت لك من أن

[1] دلائل الإعجاز: ص154، مصدر مذكور.
[2] المصدر نفسه: ص156.
[3] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
[4] المصدر نفسه، ص 163.
[5] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
[6] المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ولا يظهر في اللفظ. فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: (لَوْ شِئْتَ أَنْ لَا تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ لَمْ تُفْسِدْهَا)، صرت إلى كلام غثٍّ، وإلى شيء يمجُّه السمع، وتعافه النفس، وذلك أن في البيان، إذا ورد بعد الإجهام وبعد التحريك له، أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك. وأنت إذا قلت: (لَوْ شِئْتَ)، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئا تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون".[1] حلل "عبد القاهر" هذا البيت بالاستناد إلى القصد الذي أراده المتكلم من طريقة الصياغة، ومراعاة المخاطَب من خلال الغرض الذي يراد حصوله عنده. وهناك من يرى بأن توظيف متضمنات القول في الكلام سبب سوء التفاهم بين المتخاطبين، فيخطأ المخاطَب في إدراك قصد المتكلم.

من خلال النماذج التي أوردها "الجرجاني" والتعليقات التي وضعها يتضح لنا ما أشرنا إليه سابقا بأن للسياق دور مهم في فهم وتأويل الخطاب لمعرفة القصد المضمر. وإن للحذف مكانة أهم من الذكر عند "الجرجاني" لذلك نجده في أغلب المواضيع يلح عليه، فيقول في ذلك" أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك، من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير، أحسن للتصوير؟".[2]

المطلب الثالث: الفصل والوصل

إن الفصل هو عطف جملة على أخرى بحرف (الواو) والفصل هو ترك هذا العطف والمجيء بها منثورة، ويعتبر الفصل والوصل من بين الآليات التي يستند إليها المتكلم لتوضيح مقاصده وتبليغها إلى المخاطَب، وقد جعل "الجرجاني" هذا الآلية سرا من أسرار البلاغة حيث يقول :" اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى، من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الإعراب الخُلّص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد"[3].

يُستعمل الوصل لربط المعاني التي يدور حولها الكلام مع مراعاة المعاني النحوية ليكون الكلام متسقا، يقول "الجرجاني":" وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى، كقولك: (زَيدٌ قَائمٌ، وعُمرو قَاعِدٌ) و(العِلمُ حَسَنٌ، والجَهلُ قَبِيحٌ)، لا سبيل لنا إلا أن ندعي أن (الواو) أشركت الثانية في إعراب قد وجب الأولى بوجه من الوجوه. وإذا كان كذلك فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه، ولمَ لمْ

[1] دلائل الإعجاز: ص164، مصدر مذكور.
[2] المصدر نفسه: ص172.
[3] المصدر نفسه: ص222.

يستو الحال بين أن تعطف وبين أن تدع العطف فنقول: (زَيدٌ قَائمٌ، عُمرو قَاعِدٌ)، وبعد أن لا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعاطف ليشرك بين الأولى والثانية فيه؟"[1].

وجاء في حديث "الجرجاني" عن مسألة الفصل والوصل ذكره لباب العطف وما ينتج عنه من آثار ظاهرة في التركيب، فمن حروف العطف والربط التي حظيت باهتمامه حرف (الواو) إذ يقول فيه:" واعلم أنه إنما يَعرض الإشكال في (الواو) دون غيرها من حروف العطف، وذاك لأن تلك تفيد مع الإشراك معاني، مثل أنّ (الفاء) توجب الترتيب من غير تراخ، و(ثم) توجبه مع تراخ، و(أو) تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه، فإذا عطفت بواحدة منها الجملة على الجملة، ظهرت الفائدة. فإذا قلت: (أَعْطَانِي فَشَكرتُه)، ظهر بالفاء أن الشكر كان معقبا على العطاء ومسببا عنه وإذا قلت: (خَرجْتُ ثمَ خَرَجَ زَيدٌ)، أفادت (ثم) أن خروجه كان بعد خروجك، وأن مهلة وقعت بينهما، وإذا قلت: (يُعْطِيك أَو يَكْسُوكَ)، دلّت (أو) على أنه يفعل واحدا منهما لا بعينه".[2]

وقال أيضا:" ثم إن الذي يوجبه النظر والتأمل أن يقال في ذلك: إنا وإن كنا إذا قلنا: (زَيدٌ قَائمٌ وعُمرو قَاعِدٌ)، فإنا لا نرى ههنا حكما نزعم أن (الواو) جاءت للجمع بين الجملتين فيه، فإنا نرى أمرا آخر نحصل معه على معنى الجمع. وذلك أنا لا نقول: (زَيدٌ قَائمٌ، عُمرو قَاعِدٌ)، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حال الثاني. يدلّك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئا ليس منه سبب، ولا هو مما يذكر بذكره ويتصل حديثه بحديثه، لم يستقم(...) وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى ليكون المعنى في هذه الجملة لفقا لمعنى في الأخرى ومضاما له، مثل أن (زيدًا) و(عمرًا) إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما، من قيام أو قعود أو ما شاكلا ذلك، مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك".[3] فالملاحظ من خلال الأمثلة والتعليقات التي قدمها "الجرجاني" أن حرف (الواو) يأثر تواجده وعدمه في اختلاف معاني الجمل، فهو لم ينظر له من الناحية النحوية فقط و إنما البلاغية أيضا.

وتحدث "الجرجاني" عن ارتباط أجزاء الكلام ببعضها البعض لحصول المعنى، وقد يكون هذا الارتباط بين الكلام الظاهر والخفي (المضمن في القول)، فيقول:" اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر (العطف) أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، ولكن تُعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان".[4]

---

[1] دلائل الإعجاز: ص223، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص224.

[3] المصدر نفسه: ص224-225.

[4] المصدر نفسه: ص225.

وضرب مثالا شعريا من قول المتنبي[1]: [الوافر]

تَوَلَّوْا بَغْتَـــةً، فَكأَنَّ بَيْنَـــا تَهَيَّنَى، فَفَاجَأَنِي اغْتِيـــالَا

فَكَانَ مَسِيرُ عِيسهِمُ ذَمِيلًا، وسَيْرُ الدَّمْعِ إثرَهُمُ انهمالَا

وعلق عليه قائلا":" قوله: (فَكَانَ مَسِيرُ عِيسهِمُ)، معطوف على (تَوَلَّوْا بَغْتَـةً)، دون ما يليه من قوله: (فَفَاجَأَنِي)، لأنا إن عطفنا على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى، من حيث أنه يدخل في معنى (كَأَنّ)، وذلك يؤدي إلى أن لا يكون مسير عيسهم حقيقة، ويكون متوهّما، كما كان تهيُّبُ البين كذلك... ألا ترى أن الغرض من هذا الكلام أن يجعل توليهم بغتة، وعلى الوجه الذي توهم من أجله أن البينَ تهيبه، مستدعيا بكاءه، وموجبا أن ينهمل دمعه، فلم يعنه أن يذكر ذملان العيس إلا ليذكر همْلان الدمع، وأن يوفق بينهما"[2]. من خلال تعليق "الجرجاني" يمكن القول أن المتنبي مزج بين آلية التقديم والتأخير وآلية الوصل ليحدث الاتساق بين أجزاء الكلام.

أما بالنسبة للفصل فقد تحدث "الجرجاني" عن عدة أمثلة يرد فيها " ومثال ما هو من الجمل كذلك قوله تعالى:‹‹ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ ›› البقرة/ 01-02 قوله: (لَا رَيْبَ فِيهِ) بيان وتوكيد وتحقيق لقوله (ذَلِكَ الكِتَابُ) وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول (هُوَ ذَلِكَ الكِتَابُ، هُوَ ذَلِكَ الكِتَابُ) فتعيده مرة ثانية لتثبيته، وليس يثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضام يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه. ومثل ذلك قوله تعالى:‹‹ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ›› البقرة/6-7 قوله تعالى: (لَا يُؤمِنُونَ) تأكيد لقوله (أَأَنْذَرتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم) وقوله: (خَتَمَ الله عَلَى قُلوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِم) تأكيد ثان أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أُنذر مثل حاله إذا لم يُنذر، كان في غاية الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة".[3]

وقال أيضا:" وهكذا قوله عز وجل: ‹‹ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤ ›› البقرة/14، وذلك لأن معنى قولهم: (إِنَّا مَعَكُمْ): إنّا لم نؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم نترك اليهودية. وقولهم: (إِنَّما نَحْنُ مُستَهْزِؤُونَ)، خبر بهذا المعنى بعينه، لأنه لا فرق بين أن يقولوا: (إِنَّا لَمْ نَقُل مَا قُلْنَاه مِنْ أَنَّا آمَنّا إِلّا اِسْتِهْزَاءً)، وبين أن يقولوا: (إِنَّا لَمْ نَخْرُج مِن دِينِكُمْ وَإِنَّا مَعَكُمْ)، بل هما في حكم الشيء الواحد، فصار كأنهم قالوا: (إِنَّا مَعَكُمْ لَمْ نُفَارِقكُمْ) فكما لا يكون (إِنَّا لَمْ نُفَارِقكُمْ) شيئا غير (إِنَّا مَعَكُمْ)، كذلك لا يكون (إِنَّما نَحْنُ مُستَهْزِؤُونَ) غيره"[4] فيقول عنها "الجرجاني" مشيرا إلى بلاغة

[1] دلائل الإعجاز: ص224، مصدر مذكور.

[2] المصدر نفسه: ص244-245.

[3] المصدر نفسه: ص227-228.

[4] المصدر نفسه: ص228.

النظم في الآية بالرغم من عدم إيراد أداة العطف:" هذا، وههنا أمر سوى ما مضى يوجب الاستئناف وترك العطف، وهو أن الحكاية عنهم بأنهم قالوا كيت وكيت، تُحرّك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم وما يُصنع بهم، وأتُنزل بهم النقمة عاجلا أم لا تترك ويُمهلون وتُوقِعُ في أنفسهم التمني لأن يتبين لهم ذلك. وإذا كان كذلك، كان هذا الكلام الذي هو قوله (الله يَسْتَهزِئُ بِهِمْ)، في معنى ما صدر جوابا عن هذا المقدر وقوعه في أنفس السامعين. وإذا كان مصدره كذلك، كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف، ليكون في صورته إذا قيل: (فَإِنْ سَأَلْتُمْ قِيلَ لَكُمْ: (الله يَسْتَهزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون)"[1]، فجملة (الله يستهزئ بهم) لا يصح عطفها على جملة (إنا معكم) لاقتضائه أنه مقول المنافقين.

لقد درس الجرجاني التقديم والتأخير وتعرض لتغيراته المختلفة مراعيا في كل ذلك المعنى، وبين أن التقديم والتأخير يؤدي إلى تغير في الدلالات؛ فوضح ذلك استنادا إلى العديد من الشواهد القرآنية والشعرية وحتى النثرية، فصاغ مجموعة من الضوابط في سبيل توضيح مقصوده، كما أنه وضح اختلاف دلالات الذكر والحذف، وأبرز أن الحذف يؤدي دلالات يعجز الذكر عن تأديتها، ثم إن حديثه عن وصل التراكيب وفصلها كان حديثا طويلا بيّن من خلاله ضوابط الوصل من ضوابط الفصل وفسر دلالاتها.

[1] دلائل الإعجاز: ص235، مصدر مذكور.

خلاصـــة

يعدّ المتكلم سيد الموقف الخطابي وهو المسؤول الأول والأخير عن الخطاب، ويتصرف فيه بحسب الموقف الاجتماعي ووضعية المخاطب وخلفياته الاجتماعية عموما، والمخاطَب هو مكمل ومتمم للخطاب، فلولاه لا يكتمل الموقف الخطابي، وهو المسؤول عن تأويل الخطاب حسب مناسبته الاجتماعية، أما الخطاب فهو الجسر الرابط بين المخاطِب والمخاطَب ضمن لحظة انجازه، وفق سياق معين يتعلق بالأوضاع الخارجية، وهذا ما عرف في البلاغة العربية بمطابقة الكلام لمقتضى الحال أو وجوب وجود مقال موائم لكل مقام، وبهذه الطريقة تبرز أهمية هذه الأقطاب الجوهرية في العملية التواصلية لتحقيق غرض التفاعل والتواصل الفكري والذهني، وهذا ما تتولى البلاغة والتداولية معالجته.

لقد استطاع الجرجاني التمييز بين المعنى الحرفي والمباشر لبعض الأساليب التعبيرية وبين المعنى غير المباشر الذي يمثل قصد المتكلم وهو مستلزم مقامي قد ينشأ عن الفعل الكلامي معاني أخرى.

وبذلك يكون الجرجاني قد فطن لظاهرة الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة، وتنبه أيضا لمبدأ القصد والإفادة وهي أبرز مبادئ التداولية، وذلك يعكس الجانب التداولي في دراسات الجرجاني.

لقد درس الجرجاني التقديم والتأخير وتعرض لتغيراته المختلفة مراعيا في كل ذلك المعنى، وبين أن التقديم والتأخير يؤدي إلى تغير في الدلالات؛ فوضح ذلك استنادا إلى العديد من الشواهد القرآنية والشعرية وحتى النثرية، فصاغ مجموعة من الضوابط في سبيل توضيح مقصوده، كما أنه وضح اختلاف دلالات الذكر والحذف، وأبرز أن الحذف يؤدي دلالات يعجز الذكر عن تأديتها، في حين أن حديثه عن وصل التراكيب وفصلها كان حديثا طويلا بيّن من خلاله ضوابط الوصل من ضوابط الفصل وفسر دلالاتها.

خاتمـــــة

وأخيرا...

وما أقسى أن نقول على عمل مدّت بيننا وبينه وشائج روحية ‹‹وأخيرا››...! لكن، وأخيرا، واحتكاما إلى منطق الأشياء. لابد للبداية من نهاية، ولابد للمسير من مصير، وهل ينتظر الانطلاق إلى الوصول؟!.

وصدق الشاعر:

وأَلْقَتَ عَصَاهَا واسْتَقَرَ بِهَا النَّوى

كَمَا قرّ عَيْنًا بالإيَابِ المسَافِـــرُ

وإننا ما نظن مطلقا أنه بهذه النتائج–التي سنسردها بعد حين– قد سّكرنا بابا، بل إننا شرعنا أبوابا...!

وما تعتقد أننا طوينا صفحات، بل فتحنا كتابا...!

فما هذه الخاتمة إلا مفتتح بداية لمن أراد أن يواصل الطريق بعدّة أكبر وأقدر، وزاد أوفر.

إننا بعد هذا التطواف الجميل في رياض "دلائل الإعجاز"، والذي كان سياحة علمية، خلصنا إلى جملة من النتائج، أهممها:

– إن دلائل الإعجاز هو أحد الكتب التراثية التي صنفت في قسم البلاغة العربية رغم ما يحويه من علوم مختلفة، فجاء حاملا لكثير من هذه الظواهر البلاغية واللغوية، التي حاول البحث دراستها ورصد خصائصها في علاقتها باللسانيات التداولية مع مراعاة الخصائص المنهجية للتراث العربي والإسهام في إعادة قراءته من جديد، في مرحلة أولى للانتقال بعدها إلى محاولة توظيفه في خضم الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة لِاغنائها والاستفادة منها في الوقت نفسه، فيأخذ بذلك مكانه الطبيعي من جهة، ويمكن الباحثين في مجال الترجمة من الاستفادة من مصطلحاته في أبحاثهم من جهة أخرى.

– التداولية كطريقة تفكير كانت حاضرة في تراثنا البلاغي وخاصة في أعمال عبد القاهر الجرجاني، ولكنها لم تظهر كمنهج خاص له قواعده المستقلة.

– أسهم كتاب دلائل الإعجاز للجرجاني في الكشف عن مدى التكامل والتقاطع المنهجي بين كل من اللغة والتواصل حيث لا يمكن أن تكون لغة دون تواصل ولا تواصل دون لغة؛ إذ إن اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن الإنسان من القيام بعملية التواصل مع غيره بطرق أكثر نجاعة وفاعلية.

– يضم دلائل الإعجاز ظواهرا بلاغية وصيغا لغوية عديدة تتباين وتتنوع فيما بينها لكنها تؤول إلى بنية خطابية واحدة تقوم ثوابتها على التركيب والدلالة والتداول.

– اهتم الجرجاني بعناصر التداول "المتكلم والسامع والخطاب"، فالمتكلم سيد الموقف الخطابي والمسؤول الأول والأخير عن الخطاب، يتصرف فيه حسب السياقات المختلفة، فقد اشترط عبد القاهر أن يكون ذا

كفاءة تداولية، بالإضافة للكفاءة اللغوية من خلال تأكيده على ضرورة مطابقة كلامه لمقتضى الحال الذي يختلف من مقام لآخر. كما يعد السامع (المخاطب) مكملا للخطاب، فبدونه لا يكتمل الموقف الخطابي، واشترط الجرجاني أن يكون السامع ذا كفاءة تداولية من أجل فهم الخطاب وتأويله، فالخطاب يعدّ جسر التواصل بين المتكلم والسامع، فنجاح المتكلم وتقبل السامع هي القاعدة التي اعتمدها الجرجاني.

– اهتم بالدلالة الثانوية "معنى المعنى" المشتغلة في الخفاء من وراء الدلالة الحقيقية، حيث أصبحت هذه الدلالة من أبرز المجالات عند البلاغيين والتداوليين، لأن الأغراض البلاغية تتحقق عبرها وتظهر في مختلف الأفعال الكلامية داخل الخطاب، لتعطي فرصة للمخاطَب من أجل البحث عن المعنى المقصود والمضمر داخل الخطاب، كما سعى في تحليله للأساليب البيانية كالاستعارة والكناية والأساليب النحوية كالتقديم والتأخير، الفصل والوصل، والحذف إلى بيان المعاني والأغراض التي يقصدها المتكلم ويوظفها حسب المقام.

و لصعوبة الإلمام بجميع قضايا اللسانيات التداولية في كتاب "دلائل الإعجاز" لم نستطع إدراجها جميعا، إلا أن مدار البحث يبقى دائما مفتوحا لقراءات أخرى تنتج مفاهيم أخرى و تثير تساؤلات جديدة، فالبحث في اللسانيات التداولية يعتبر صالحا لكل زمان و مكان فإذا كنا بحاجة لفهم ما يضمه التراث اللغوي العربي فإننا نحتاج إلى التداولية.

قائمة المصادر

و

المراجـــع

القرآن الكريم برواية حفص

المصادر والمراجع

المتن: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دس.

أولا: القديمة

1. ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1929، ج5.

2. ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982.

3. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجاحظ، مصر، ط4، 1975، ج1.

4. أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ-2003م، ج2.

5. جمال الدين القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ج2.

6. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991.

7. عمر الزمخشري: أساس البلاغة، تح: مزيد نعيم وشوقي المعري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1.

ثانيـا: الحديثة

1. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن هجري، دار الأمانة، بيروت، لبنان، ط1، 1981.

2. أحمد حساني: المباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1999.

3. أحمد قدور: مبادئ اللسانيات العامة، دار الفكر، دمشق، ط3، 2008.

4. أحمد مطلوب : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات للنشر، ط1، 1973.

5. خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، مكتبة الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.

6. سعيد بحيري: دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، زهراء الشرق، القاهرة، دط، 1973.

7. شكري المبخوت: جمالية الألفة: النص ومتقبله في التراث النقدي، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ط1، 1993.

8. صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

9. طه عبد الرحمان: اللسان والميزات، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط1، 1998.

10. عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساقه الثقافية، دار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط1، 2010.

11. عبد الله اصطيف: نظرية النظم عند الجرجاني، مجلة أقلام، العدد 11.

12.عبد الهادي بن ضافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

13.عبد الواسع الحميري: في آفاق الكلام وتكلم النص، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2009.

14.محمد أبو موسى: مدخل إلى كتابيّ عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1418هـ، 1998م.

15.محمد الأخضر الصبيحي: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، دار العربية للعلوم، الجزائر، ط1، 2008.

16.محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1984.

17.محمد عبد المنجم خفاجي وعبد العزيز شريف: البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1، 1992.

18.محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، ط2، 1984.

19.محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، 2002.

20.محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) "دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ"، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013.

21.مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

22. نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي-المبادئ والإجراءات-، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009.

23. وليد محمد السراقبي: الألسونية مفهومها مبانيها المعرفية ومدارسها، دار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة، بيروت، لبنان، ط1، 1440هـ، 2019م.

24. يوسف غازي: مدخل إلى الألسونية، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق، ط1، 1985.

المعاجم والقواميـس

1. ابن عباد الطالقاني : المحيط في اللغة، تح: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1971، ج4.

2. ابن فارس: مقاييس اللغة، تح: محمد هارون، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط2، 1991، ج2.

3. ابن منظور: لسان العرب، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ، 2005م، ج1.

4. أبو نصر الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصِحاح العربية، تح: محمد محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، د ط، 1430هـ، 2009.

5. الراغب الأصفهاني: مفردات في غريب القرآن، تح: محمد أحمد خلق الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د ط، د س.

6. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1993، ج18.

7. _____ : معجم البلدان، تح: صلاح الدين الهواري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ج2.

الكتب المترجمــة

1. آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

2. _____: القاموس الموسعي للتداولية، تر: مجموعة من الباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط2، 2010.

3. جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط1، 1431هـ، 2004م.

4. فان دايك: النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، د س.

5. فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الأنماء القومي، الرباط، ط1، 1986.

المجلات

1. ألفا أوصمان باري: مقال تحليل الخطاب أسسه النظرية، تر: لحسن بوتكلاي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، العدد 5، 2014، ص136.

2. بلقاسم دفة: استراتيجيات الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد10، 2014.

3. حليمة بوالريش: التأصيل بأفعال الكلام للتراث العربي القديم، مجلة الأندلس، المغرب، العدد 25، 2018.

الرسائل الجامعية

1. ثقبايت حامدة: قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة والخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012م.

2. هند جميل صالح ناتيه: مصادر الإمام عبد القاهر الجرجاني في بلاغته، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1407هـ.

المواقع الإلكترونيـة

1. خديجة بوخشة: محاضرات في اللسانيات التداولية Elarning-univ-jijel .dz.

2. عبد القادر شاكر عبيد: شذرات في اختصار مباحث علم الدلالات، alridhawan71@yaho.com ،د ط، د س.

فهـــرس
الموضوعات

مقدمة ..... أ

مدخـل:

I. حياة الإمام عبد القاهر الجرجاني

1. سيرتـه 2
2. شيوخـه 3
3. منزلتـه العلميـة 3
4. تلاميذه 4
5. مؤلفاته 5
6. وفاته 6

II. التعريف بكتاب "دلائل الإعجاز"

1. وصف الكتاب 7
2. سبب تأليف الكتاب 8
3. مضمون الكتاب 8
4. مصادر الكتاب 12

الفصل الأول: اللسانيات والتداولية –النشـأة والأسس–

تمهيد 14

المبحث الأول: اللسانيات (التعريف والجذور)

المطلب الأول: تعريف اللسانيات 16

1. لغـة 16
2. اصطلاحـا 17

المطلب الثاني: نشأة اللسانيات وتطورها 19

المطلب الثالث: خصائص اللسانيات 21

المبحث الثاني: التداولية بين المفهوم والنشأة

المطلب الأول: تعريف التداولية 23

1. لغة 23
2. اصطلاحا 24

المطلب الثاني: نشأة التداولية وتطورها 26

المطلب الثالث: جذورها في التراث العربي 29

1. مظاهر التداولية عند الجاحظ 29
2. مظاهر التداولية عند ابن جني 30
3. مظاهر التداولية عند ابن سنان الخفاجي 30

المبحث الثالث: التداولية (القضايا والمهام)

المطلب الأول: مفاهيم التداولية وقضاياها 32

1. أفعال الكلام 32
2. الملفوظية 33
3. الحجاج 34
4. متضمنات القول 35
5. الاستلزام الحواري 36

المطلب الثاني: مهام التداولية 39

المبحث الرابع: اللسانيات التداولية

المطلب الأول: تعريف اللسانيات التداولية 42

المطلب الثاني: علاقة التداولية باللسانيات 43

1. علاقة التداولية باللسانيات البنيوية 43
2. علاقة التداولية باللسانيات النفسية 44

3. علاقة التداولية باللسانيات الاجتماعية 45
4. علاقة التداولية باللسانيات التعليمية 45
5. علاقة التداولية باللسانيات النصية 45
المطلب الثالث: أهمية اللسانيات التداولية 47
خلاصة 48

الفصل الثاني: قضايا اللسانيات التداولية في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني

تمهيد 50

المبحث الأول: عناصر العملية التخاطبية عند الجرجاني

المطلب الأول: المتكلم 52
المطلب الثاني: السامع 53
المطلب الثالث: الكلام 54

المبحث الثاني: الأفعال الكلامية عند الجرجاني

المطلب الأول: الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة 57
1. الأفعال الكلامية المباشرة 57
2. الأفعال الكلامية غير المباشرة 57
المطلب الثاني: الأفعال المتضمنة في القول 59
1. الخبـر 59
2. الاستخبـار 60
3. الإنكار 60

4. الأمـر 61

5. النهـي 61

المبحث الثالث: الاغراض البلاغية والفعل الكلامي عند الجرجاني

المطلب الأول: التقديم والتأخيـر 63

المطلب الثاني: الحذف 65

المطلب الثالث: الفصل والوصل 67

خلاصـة 71

خاتمـــــة 73

قائمة المصادر و المراجع 76